القول في الساق العليلة والساق السليمة

قالوا: إذا كانت ساقُ الإنسانِ منتصبةً وكانت القَدَمُ على الأرض وضربها ضاربٌ بعصًا لم تنكسرْ إلَّا أن تُصِيبها الضربةُ وهى على غير الهُبَةِ[١] .

سفيان ، عن زياد ، عن سعيد ، عن الزُّهرى ، عن سعيد بن المسيَّب ، عن أَبى هريرة ، عن النبىِّ عليه السلام ، قال : « يُخْرِب الكَعْبَةَ ذُو السُّويقتين من الحبشة » .

وعن ابن عباس ، عن النبىّ عليه السلام ، قال : « كأنِّى أنظرُ إليهِ أصلع أفْحَجَ يَهْدِمُها حَجَراً حَجَراً[٢] » .

* * *

ومحمد بن فضيل ، عن المغيرة ، عن أُمّ موسى ، عن علىّ ، قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن مسعود أن يصعدَ شجرةً فيأْتِيَهُ بشىءٍ منها، فنظر أصحابُه إلى حُمُوشَةِ ساقَيْهِ فضحكوا منها، فقال النبىُّ عليه السلام : « ما تضحكون لرجلٍ عند الله فى الميزان أثقلَ من أُحُدٍ »[٣].

* * *

والذى سَمَّى شُرَيْحَ بنَ ضُبَيْعَةَ الحُطَمَ[٤] ، رُشَيدُ بنُ رُمَيْضٍ[٥] حين رَجَزَ به فى الحرب ، فقال :

---

(١) الهبة : الأهبة وهى الاستعداد والتوقع .

(٢) انظر فى هذا صحيح البخارى كتاب الحج باب ٤٩ .

(٣) انظر الحديث الشريف فى مسند الإمام أحمد ١١٤/١ .

(٤) هو شريح بن ضبيعة بن شرحبيل بن عمرو بن مرثد من بنى قيس بن ثعلبة ، وهو صاحب المشركين فى الردة ، انظر جمهرة الأنساب ٣٢٠ ، المحبر ٤٦٣ ، الأغانى ٤٤/١٤ ، والحطم معناه الراعى الظلوم للماشية يهشم بعضها ببعض ، وكان شريح قد غزا اليمن ثم أخذ على طريق مفازة فضل بهم دليلهم ثم هرب فهلك منهم أناس عطشاً ، وجعل الحطم يسوق بأصحابه سوقا عنيفاً حتى نجوا ووردوا المـاء .

(٥) شاعر جاهلى أدرك الإسلام ذكره ابن حجر فى الإصابة الترجمة ٢٧٣٣ ، وسماه فى الكامل ٢٢٤/١ : رويشد بن رميض ، انظر أبياته الشهيرة فى كثير من المراجع منها المرجع السابق، والبيان والتبيين ١٠٨/١ ، والمستطرف ٥١/١ ، الحماسة ٤٠ ، معاهدالتنصيص ١١٥/١ .

قد لَفَّهَا الليلُ بِسَوَّاقٍ حُطَـــمْ لَيْسَ براعِى إبلٍ ولا غَنَمْ
ولا بجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ الوَضَمْ خَدَلَّجُ السَّاقَيْنِ خَفَّاقُ القَدَمْ[1]

وهذا غير قول الشاعر :

لا يغمزُ السَّاق من أَيْنٍ ولا وَصَبِ ولا يَعَضُّ على شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ

* * *

وممّن كان دميا دقيق السَّاقِ فَاحِشَ الدِّقَّةِ عُوَيْرُ بن شِجْنَةَ العُطَارِدىُّ وهو الوافى ، وكان خَفِيرَ امرئ القيسِ بن حُجْرٍ[2] ، فبينا هو يَقُودُهم ليلًا طلع القمر فأبصر نساءُ امرئ القيسِ ساقيْهِ ، فقالت[3] : ما رأيتُ ساقَىْ وافٍ أقبح ، فقال عُوَيْر : هما سَاقَا غَادرٍ أقبح[4] ، وإيّاه يعنى امرؤُ القيسِ حيث يقولُ :

لا حِمْيَرِىٌّ وَفَى ولا عُـدُسٌ ولا اسْتُ عَيْرٍ يَحُكُّهَا الثَّفَرُ[5]
لكنْ عُوَيْرٌ وَفَى بذِمَّتِـــهِ لا قِصَرٌ عَابَهُ ولا عَـــوَرُ

---

(١) الوضم : ما وقى به اللحم من الأرض من خشب أو حصير ، والخدلج : الممتلئ الساقين ، والخفق : سرعة الخطو مع ضرب الأرض بها .

(٢) الصحيح أنه كان خفير آل عمه شرحبيل بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندى الذى قتل يوم الكلاب الأول ، فقامت بنو سعد بن زيد مناة بن تميم دون عياله فمنعوهم وحالوا بين الناس وبينهم ودافعوا عنهم حتى ألحقوهم بقومهم ومأمنهم ، وولى ذلك منهم عوير ابن شجنة وحشد له فى ذلك رهطه ونهضوا معه ، فأثنى عليهم امرؤ القيس فى أشعاره وامتدحهم وذكر وفاءهم وهجا بنى حنظلة الذين خذلوه ، انظر النقائض ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، المفضليات ٤٣٧ ، ديوان امرئ القيس ٨٣ .

(٣) أى إحداهن كما يستلزم السياق .

(٤) أى لو كان هذان الساقان لغادر لكانا أشد قبحاً .

(٥) فى الأصل : ولا حميرى بزيادة واو وهى خطأ ، وحميرى وعدس من بنى حنظلة . وقوله : ولا است عير أراد رجلا نسب إلى الدناءة واللؤم ، فضرب له المثل باست العير وخص العير لأنه أذل المركوبات وألأمها ، والثفر : السرج فى مؤخر الرحل ، وهو إشارة إلى أنه متهن بالخدمة لهجنته ، وليس بفحل فيمز ظهره ، وفى اللسان ١٧٣/٥ : ثفره .

وقال :

عُوَيْرٌ ومَنْ مِثْلُ العُوَيْرِ ورَهْطِهِ وأفضلَ فى حَالِ البَلَابلِ صَفْوَانُ[١]

وممن كان يوصفُ بدقّة السَّاق أبو حَنْبَل الطائى[٢]

* * *

وفى المَثَل : قد قامتْ الحربُ على سَاق .

ويزعم ناسٌ أن السَّاق اسمٌ من أسْماءِ الحمامِ الذَّكَر ، قال الطِّرِمَّاحُ :

كالسَّاقِ سَاقِ الحمام[٣]

---

(١) فى الديوان : وأسعد بدل وأفضل ، وليل بدل حال ، والبلابل : الأحزان والفكر .

(٢) لأبى حنبل هذا صلة وثيقة بالقصة السالفة ، فقد كان خفيراً لامرئ القيس حينما تحول إلى جبل طيئ ، فيقال إنه حينما نزل عليه ومعه أهله وماله وسلاحه ، ولأبى حنبل امرأتان جدلية وتغلبية ، فقالت الجدلية : رزق أتاك الله به ، ولا ذمة له عليك ولا عقد ولا جوار ، فأرى لك أن تأكله وتطعمه قومك ، وقالت التغلبية : رجل تحرم بك واستجارك واختارك فأرى لك أن تحفظه وتفى له ، فقام أبو حنبل إلى جذعة من الغنم فاحتلبها وشرب لبنها ثم مسح بطنه وحجل ، ثم قال :

لقد آليت أغـدر فى جذاع وإن منيت أمات الربـاع

لأن الغـدر فى الأقـوام عار وإن الحر يجزى بالكراع

فقالت الجدلية حين رأته يحجل ورأت ساقيه حمشتين : تالله ما رأيت كاليوم ساق واف ، فقال أبو حنبل : هما ساقا غادر شر ، فذهبت مثلا . انظر مجمع الأمثال ٢/٣٧٧ ، وثمة تصوير آخر للقصة فى ٢/٤١١ ، وانظر فصل المقال ١٢٤ ، الشعر والشعراء ١/١١٧ ، وذكر أبو الفرج تفصيلا آخر للقصة ، انظره فى الأغانى ٩/٩٠ .

(٣) فى الديوان : كسراة الساق ساق الحمام ، وهو عجز بيت صدره :

بين آظـآر بمظلومة

والآظآر : النوق تعطف على أولادها ، واحدتها ظئر ، وهو يصف فى أبياته تلك أثافى القدر وما بينها من رماد بالنوق وبينها حوار تعطف عليه ، والمظلومة الأرض التى لم تحفر قط ثم ضربت ، وسراة الشئ ظهره ووسطه ، والساق بمعنى الذكر من الحمام ، وهو يشبه الرماد بظهر الحمام فى لونه ، انظر الديوان ، والأضداد ١/٤٨٠ ، والحيوان ١/٢٤٣

وقال الآخرون : بل اسمه سَاقُ حُرٍّ[١] ، والأصمعى يخالف فى ذلك.

وقال اللهُ تعالى : ﴿ والتفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ ﴾[٢] وهذا مثلٌ .

* * *

ويقال : إنَّ جميع نَباتِ الأَرض على ثلاثة أَصناف : نَجْمٌ وشَجَرٌ ويَقْطِين ، فما كان قائماً على ساقٍ فهو نَجْم ، وماكان منفرجًا ذا أغصانٍ ومُتَشعبًا بأفنان فهو يَقْطين[٣] ، وفى القرآن ﴿والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[٤] فمن ذهب فى النَّجم إلى غير هذا فليس يذهب إلى الثُّرَيَّا[٥] ، إنما يذهب إلى قول الشاعر :

فَبَاتَ يَعُدُّ النَّجْمَ فى مُسْتَحِيرةٍ سريعٌ على أيدى الطُّهَاةِ جُمُودُهَا[٦]

وإنما وصف جفنةً غَرّاءِ كثيرةً الإهالة قدمها إلى أضيافة ليلا ، فكانوا يرون صورة النجوم فيها ، ولا يستقيم فى هذا الوضع أن يَعْنِى

---

(١) وهم يستشهدون بقول الشاعر :

هتوف تبكى ساق حر ولن ترى لها دمعة يوماً على خدها تجرى

إلا أن الأصمعى يزعم أن قوله هتوف تبكى ساق حر إنما هو حكاية صوت وحشى الطير من هذه النواحات ، ولا يوافق على كونها اسم الحمام الذكر ، انظر الحيوان بالرقم السابق ، وانظر اللسان ٢٥٦/٥ ففيه الحديث مستوفى عن هذه العبارة .

(٢) الآية ٣٠ من سورة القيامة ، وهو مثل أى فاتصلت الشدة بالشدة ، شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة ، قال ذلك ابن عباس والحسن وغيرهما ، وثمة تفسيرات أخرى للآية الكريمة انظرها فى القرطبى ٦٩٠٣ ، وقال : العرب لا تذكر الساق إلا فى المحن والشدائد العظام ومنه قولهم : قامت الدنيا على ساق ، وقامت الحرب على ساق .

(٣) هكذا فى الأصل ، والمعروف أن النجم ماليس قائماً على ساق ، وأن الشجر هو ماقام على ساق ، أما اليقطين فهو ماله ساق ولكن لا يقوم عليها نحو الدباء والقرع والبطيخ .

(٤) الآية ٦ من سورة الرحمن .

(٥) ذلك لأن النجم بهذا المعنى الآخر غير النباتى يطلق على الواحد من النجوم أو يراد به الجميع من النجوم، أو تراد به الثريا خاصة، انظر شروح سقط الزند ١٢٠/١ ، اللسان ٤٧/١٦ .

(٦) البيت للراعى ، انظره فى المرجعين السابقين وتفسير القرطبى ، والمستحيرة : القصعة أو الجفنة المتحيرة فى امتلائها ، ورواية المراجع : سريع بأيدى الآكلين ، وجمودها : فراغها مما فيها .

نَجْمَ الثريا وحدها ، والنجم اسم الثريا إلَّا أن التأويل الآخر أعم وأشبه بالتأويل .

* * *

قال : وبابٌ آخر من العَرَج الحادث الذى يزول بزوال العلَّة من الظَّلِعَ العَارِضِ الذى لم يكن فى أصل الخلقة ، وهو أن البَعير يَسْمُنُ جدًّا ويتراكم عليه الشَّحم واللحم فيصير به ظلع ، ويخلطُ فى المَشْى ، ويهاب بَسيط الأَرض ، ويَحْسَبُ المُسْتَوِى هَبْطَةً والسُّهُولَةَ وُعُورَة ، قال طُفيل الغنوى وَذكَر إبله[1] :

تَهَابُ الطَّريقَ السَّهْلَ تَحْسَبُ أنَّها
وُعُورٌ وِرَاطٌ وهْى بَيْدَاء بَلْقَعُ
وقد سَمِنَتْ حتَّى كأنَّ مَخَاضَهَا
تَفَشَّغَهَا ظَلْعٌ وليستْ بِظُلَّع[2]

ويقال : إنها إذا سَمِنت جدًّا وتراكم عليها اللحمُ وصار ظلُّ أبدانها أعظم استهالتْه وفزعت منه ، وأنشدنى أبو العاص بن عبد الوهاب ، قال : أنشدنى يونس بن حبيب وخلف بن حيان قولَ العُكْلى :

---

(١) البيتان التاليان من قصيدتين مختلفتين للطفيل كما يتضح ذلك من اختلاف حركة الروى فى كل ، فالأول من قصيدة يمدح بها بنى سعد بن عوف وأولها :

جزى الله عوفا من موالى جنابة ونكراء خيراً كل جار مودع

الديوان ٨٥ — ٨٩ ، والثانى من قصيدة يمدح بها بنى الحارث بن كعب وأولها :

إذا دعاهن ارعوين لصوته كما يرعوى غيد إلى صوت مسمع

الديوان ٥٢ — ٥٤ .

(٢) المخاض : اللواتى لقحن ، وتفشغها : فشا فيها شبيه الظلع وليست بظلع يريد من سمنها ، وفى الأصل : تفسمها ، تحريف .

مَضَتْ فَزِعَاتٌ من زَوَائِدِ ظلِّهَا فَعُدَن وقد عادتْ لهنَّ قُلُوبُ

يقول : رَجَعْن من تلك السَّفْرة وقد تَوَاضَعنْ وذهب عنهنَّ ذلك الشحم ، فذهب عنهن ذلك الفزع ، وقال آخر :

مَعَاقِيلُ من أيديهمُ وأُنوفِهِمْ بِكَارًا وثُنْيًا تَرْبتُ الحَزْنَ ظُلَّعَا

هجاهم بأَخذ الدِّياتِ وجَعَلَها سِمَانًا على وجه السُّخْرية ، وقال مُحْرِزُ ابن المُكعبر[١] :

وجِئْتُمْ بها مَذْمُومةً حَرَشِيَّـةً تكادُ من اللُّؤْمِ المبين تَظَلَّعُ

يقول : قد امتلأَت لُؤْمًا وأَثقلها ذلك ، وفى سِمَن الإبل قال الشاعر :

أَرى غيثًا كأَفواه العَزَالى[٢] غزيراً تستديرُ به السَّحَابُ

به تَمْشِى العِشَارُ مُخَرَّمَـاتٍ وتنفَعُ أَهلهَا المعزى الزِّنَـابُ[٣]

يقول : خَرِموا مشافر الإبل كى لا ترتع فى ذلك المكان فتزداد سمنًا فتهلك .

وحدثنى مَهديٌّ بن إبراهيم قال : ربّما رأَيت البعيرَ فى بعض مراعى مَضَر وقد قتله الشحمُ ، وإنه لمتصدِّعٌ جلد الكِرْكِرَةِ[٤] على مثل شَطِّ السَّنام[٥] .

---

(١) فى الأصل : المعكبر وهو خطأ ، وقد سبق التعريف به .
(٢) العزالى جمع عزلاء وهى مصب الماء من الراوية .
(٣) الزناب : السمان والكلمة غير واضحة فى الأصل .
(٤) الكركرة : رحى زور البعير أو صدر كل ذى خف .
(٥) شط السنام : جانبه أو نصفه .

وحدثنى أبو البُهْلول الهُجَيْمى ، وكان شاعراً فصيحاً داهياً ، قال : إذا خفْنا على الإبل أن تموت سِمَنًا عَدَلْنا بها عن وادى بَلْهَجِيم إلى موضع هو أرقُّ نَبَاتًا وأقلُّ دَسَمًا ، وزَعم أنَّهم يحصُدُون السُّنْبُلَ فى واديهم كلَّ عامٍ مرتين ، ونحن قد نرى الدَّجَاجة تسمن فى بعض البيوت وكذلك البطة فإذا فَرَط عليها السِّمَنُ فرُبّما ماتتْ ، ولا بدّ من أن تَعْمى قبل ذلك ، وذلك إذا جعلوها فى وعاءٍ وحَيَّطُوا عليها ومنعوها من الحركة ، وقد يتخذون للصبى طِمرين وكذلك الفَصِيل ، فلا يزالُ ذلك الشحمُ القديمُ لازمًا لتلك الأبدان ، وما سُوِّى اللبنَ فهو فى البهائم أنْجَع .

* * *

قال : وقال أبو مُجيب : تَعْقَمُ ولا تَعْقَم الأَصْلاب ، كأنه يذهبُ إلى أنَّ المرأةَ والشاةَ والأتانَ والناقةَ إذا سَمِنَّ جداً صِرْنَ عُقْراً ، ولا يعترى ذلك الرجلَ والتَّيْسَ والعير والجمل .

وإذا نزل الغيثُ وعمَّ ودَرَّ كان حُزْن المُمْعِزِ والمُصْرِم[1] بقَدْر سُرور صاحب الهَجْمَة[2] ممن يقولون كَلأٌ تَيْجَعُ[3] به كبد المُصْرِم ، ويقولون عند ذلك : مَرْعًى ولا أَكُولَة ، وقد قال الشاعرُ فى الدُّعَاء عَلَى رجل :

---

(١) المصرم : الفقير صاحب العيال .

(٢) الهجمة من الإبل : أولها أربعون إلى ما زادت ، أو ما بين السبعين إلى المائة أو إلى دونها .

(٣) تيجع : تمرض ، وفعله : وجع توجع وتيجع وتاجع ، وانظر العبارة فى البيان ١٦١/٢ .

وجُنِّبْتَ الجُيُوشَ أَبَازُهَيرٍ وجَادَ على مَسَارِحِكَ السَّحَابُ[١]

لأن الفقير لا يغزوه أحد ، وإذا جاد السَّحَابُ على مَسَارح المُصْرم كان أَشدّ لِحسْرته ، وقال الآخر :

غيثٌ سِمَاكِيٌّ أَجَشُّ رَعْـدُهْ هيهات من نَوْءِ الثُّرَيَّا عَهْدُهْ[٢]

أَرزمُ عشواءُ يَحِرُّ صَعْدُهْ حَاتٌّ معًا كماتُه ورَبَـدُهْ[٣]

ويقال : غمامةٌ خرساءُ ورعدٌ أَجشُّ . كذلك يجدون فى الغيوم الثِّقَالَ المُرْجَحِنَّةَ . وهى فى السحاب المتكاثف القليل المَخَارِق[٤] والظَّاهِر الرطوبة القَرِيب من الأَرض ، وقال شاعرهم فى صفة الغيث واشتراطه صفة دون صفة[٥] :

سَحَائِبُ لا منْ صَيِّفٍ ذِى صَوَاعِقٍ
ولا مُحْرِقَـاتٍ صـوتُهن حَمِيمُ[٦]

---

(١) البيت فى اللسان ٤٣٦/١ ، والبيان ١٦٢/٣ ، والرواية فيهما : أبا زنيب بدل أبا زهير ، والعمدة ١٥٢/٢ والرواية فيه : تجنبك الجيوش أبا حبيب ، وفى العمدة أن البيت يحتمل أمرين : أن يكون دعا له بأن يعافى من الجيوش وأن يجوده السحاب فتخصب أرضه ، أو أن يكون دعا عليه وهو الوجه الذى ذكره المؤلف هنا .

(٢) السماكى نسبة إلى السماك وهو اسم يطلق على الأعزل والرامح وهما نجمان نيران فى السماء ، والعهد : أول مطر الوسمى وهو الربيع الأول ، وفى الأصل : عنده بدل عهده ، تحريف

(٣) الأرزم : الرعد يشتد صوته ، ويستحر صعده : يشتد انحداره ، والحات ذو الحلبة .

(٤) المخارق : الخروق والفروج .

(٥) نسب البيتان التاليان لابن ميادة فى الكامل ٥٠ ، الأغانى ٣٢٣/٢ والثانى فى محاضرات الأدباء ٢٤٧/٢ ، ووردا ضمن قصيدة لمزاحم بن الحارث القريعى فى الأشباه والنظائر ٢٦٠/٢ .

(٦) الصيف : المطر فى الصيف أو بعد الربيع ، وفى الأصل : على صواعق ولا يستقيم معها الوزن ، ورواية الأشباه والنظائر : ولا ملقحات ، وقال فى هامشه : والرواية هى : ولا محرفات من مطر الخريف وهو الوجه ، وفيها أيضا : ماؤهن بدل صوتهن .

إذا ما هبطْنَ الأرضَ قد مات عُودُها
بكيْنَ بهـا حتَّى يعيشَ هشيمُ[١]

ووصف امرؤُ القَيْس المَرْعَى الموفَّرَ النَّبْتِ ، فقال :

تَحَامَاهُ أَطْرافُ الرِّماحِ تَحَامِيًا وجَادَ عليه كلُّ أَسْحَمَ هَطَّالِ[٢]

وإلى ذلك ذهب أبو النجم فى قوله :

تَبَقَّلَتْ من أَوّلِ التَّبَقُّـلِ بين رِمَاحَىْ مَالِكٍ ونَهْشَلِ[٣]

وقال الهُذَلِىُّ[٤] :

وإنهما لَجَوَّابَا خَـرُوقٍ وشَرَّابَان بالنُّطَفِ الطَّوَامِى[٥]

---

(١) فى الأصل : عوده بدل عودها ، وقد أثبتنا رواية المراجع .

(٢) الديوان ٣٧ ، وتحاماه أن تمنع عنه أطراف الرماح ، وخص أطراف الرماح لأنها هى العاملة ، والأسحم : الأسود ولا يكون كذلك إلا من غزارته ، والمعنى أن هذا الموضع تتابعت عليه الأمطار ومنعت منه الرماح فهو كامل الخصب وافر النبت وانظر السمط ٨٥٧ .

(٣) البيت من أرجوزته التى مطلعها :

الحمد لله الوهوب المجزل

انظرأرجوزتهضمن الطرائف الأدبية ٥٧ ، وانظر خزانة الأدب ١/٤٠١ ، وأمالى القالى ٢/٢٢٧ ، ٢٣٣ ، والسمط ٨٥٧ ، والأغانى ١٠ /١٥١ ، ١٥٢ ، ومختار الأغانى ٦/٨٠ ، ومعاهد التنصيص ١/٨ .

وهو يريد بقوله : تبقلت .. إلخ أن قبيلته (بنى عجل) خرجت لطلب البقل فى مكان خصيب بين حيين كانا متحاربين وهما مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب ابن على بن بكر بن وائل ونهشل قبيلة من ربيعة ، وهؤلاء كانوا يرعون الصمان وعرض الدهناء ، فتحامى جميعهم الرعى فيما بين فلج والصمان مخافة أن يتعرضوا لشر حتى عفا كلؤه وطال ، فذكر أبو النجم أن قومه جاءوا لعزهم إلى ذلك الموضع فرعوه ولم يخافوا من هذين الحيين.

(٤) هو معقل بن خويلد الهذلى ، وكان قد خرج ببنى سهم بن معاوية فغزا بهم خزاعة فأصاب منهم نعما وسبياً كثيراً ، ثم إن بنى كعب وهم الذين غزاهم خرجوا وراءه بجمع عظيم فأدركوه ومن معه وقد أمنوا واغتروا ووضعوا السلاح ، فعدوا عليهم وقتلوا منهم رجلين يقال لهم العمران ، ووثبوا على معقل وهو يغتسل فقتل منهم ثلاثة ، ثم نجا بمن معه ، وقال قصيدته هذه ورثا فيها العمرين ، انظر ديوان الهذليين ٢/٦٦ ، ٦٧ .

(٥) فى الديوان : فإنكما بدل فإنها ، والدوامى بدل الطوامى ، والجواب : القطاع ، =

كأنهما فى طول ما ينقبان فى البلاد ، ويجوبان فى المفاوز ، ويَهْجُمان على مياهٍ ليستْ لها أربابٌ ولا هى على طرق الغُزاة والبغاة ، والماءُ طاف يطفح ، ورُبَّ موضعٍ هو ضِدُّ هذا ، وهو كما قال امرؤُ القيس :

مَجَرَّ جُيُوشٍ غانِمِينَ وخُيَّب[1]

* * *

ووصف النَّمِرُ بن تَوْلَب الروضةَ والأرض المحمودة ، والبطنَ الخَصِيبَ العَشِيبِ ، والوادى الكريمَ ، فقال[2] :

وكأنّهـا دَقَرى تَخَيَّلُ نَبْتُها ... أُنُفٌ يَعُمُّ الضَّالَّ نبتُ بِحَارِهَا[3]

عَزَبَتْ وباكَرَهَا الشتاءُ بِدِيمةٍ ... وَطْفَاءَ تَمْلأُها إلى أَصْبَارِهَا[4]

= والخروق: طرق تتخرق من فلاة إلى فلاة، والنطفة : الماء القليل، ثم توسع فيها حتى سموا البحر نطفة ، والطوامى : المرتفعة المملوءة ، وهو يقول : هما بطلان يقطعان الفيافى ويردان المياه التى لا تورد .

(١) عجز بيت لامرئ القيس ، صدره :

بمحنية قد آزر الضال نبتها

ديوانه ٤٥ .

والمحنية : أى حيث ينحنى الوادى ، وآزر أى بلغ الأزر وهى الأوساط، والضال : شجر السدر ، والمعنى أن النبت لحق بالشجر طولا فيها، وقد وصف هذا الموضع بأن كثيراً من الجيوش الهائبة المنهزمة أو الغانمة المنتصرة تمر به ، ويرى الجاحظ أن هذا المكان يكون أجرد قليل العشب والمياه ، على حين أن معنى صدر البيت لا يساعده .

(٢) البيت الأول فى اللسان ١٠٨/٥ ، ٣٧٥ ، والثانى فى ١١٠/٦ .

(٣) الدقرى : الروضة الحسناء ، وتخيل أى تلون بالنور فتريك رؤيا تخيل إليك أنها لون ثم تراها لوناً آخر ، ثم قطع الكلام الأول وابتدأ فقال : نبتها أنف ، والأنف التى لم ترع ، ويعم : يدلو ويستر ، يقول : نبتها يعم ضالها ، والضال السدر البرى ، والبحار : جمع بحرة وهى الأرض المستوية التى ليس بقربها جبل .

(٤) عزبت : بعد كلؤها ، وفى اللسان : الشتى بدل الشتاء والشتى هو مطر الشتاء ، والديمة المطر الذى يدوم فى سكون دون رعد ولا برق يوماً وليلة أو أقل أو أكثر والوطفاء : المنهمرة ، والأصبار : الأعالى .

وقال فى مثل ذلك[١] :

كأنَّ حَمْدَةَ أوعزَّت لها شَبَهًا ... فى العين يومًا تُلاقينا بأرْمَام[٢]

مَيْثَاءُ جادَ عليها واكفٌ هَطِلٌ ... فأمرعت لاحتيال فَرْط أعوام[٣]

إذا يَجِفُّ ثَرَاها بلَّها دِيَمٌ ... من واكف بَزل بالماء سَحَّام

لم يَرْعَها أحدٌ وارْبَتَّها زمناً ... فَأْوٌ من الأرض محفوفٌ بأعلام[٤]

تسمعُ للطير فى حافاتها زَجَلًا ... كأن أصواتها أصْواتُ جُرَّام[٥]

كأن ريحَ خُزَامَاها وحَنْوتِها ... باللَّيْلِ ريحُ ألَنْجُوجٍ وأهْضَام[٦]

وقال آخر فى صفة روضة[٧] :

كانت لنَا من غَطَفَان جَارَهْ ... حَلَّالَةٌ ظَعَّانَةٌ سَيَّارَهْ

كأنَّهَا مِن دَبَلٍ وَشَارَهْ[٨] ... والحَلْى حَلْى التِّبْرِ والحِجَارَهْ

مَدْفَعُ مَيْثَاءَ إلى قَرَارَهْ[٩] ... إيَّاكِ أعْنِى واسْمَعِى يا جَارَهْ

---

(١) انظر الأبيات فى الحيوان ١/١٢٠ .

(٢) فى الأصل : جمرة بدل حمدة ، ويوم بدل يوماً .

(٣) الميثاء : الأرض السهلة ، وأمرعت : أخصبت ، ولاحتيال : أى بعد احتيال والاحتيال : مرور الأعوام ، وفرط الأعوام : أى بعد أعوام .

(٤) أربتها : أغلقها ، والفأو : بطن تطيف به الرمال يكون مستطيلا ، والأعلام الأماكن العالية .

(٥) الجرام : الذين يصرمون التمر أى يقطعونه .

(٦) الخزامى والحنوة : نبتان طيبا الرائحة ، وألينلنجوج والألنجوج : العود الهندى يتبخر به ، والأهضام : كل شئ يتبخر به عدا العود .

(٧) الأبيات التالية ما عدا الثانى فى الحيوان ٣/١٢٢ ، والبيت السادس والأخير منها فى مجمع الأمثال ١/٤٩ مع أبيات أخرى وقصة منسوبة إلى سهل بن مالك الفزارى ، وانظر اللسان حلى .

(٨) الدبل أصله فى البعير أن يمتلئ شحماً ولحماً ، والشارة ، حسن الهيئة .

(٩) المدفع ، المجرى ، والميثاء : الأرض السهلة ، والقرارة : المطمئن من الأرض ، وفى الأصل فزارة .

وقال بَشَّار بن برد[١] :

وحـديثٌ كأنَّه قِطَعُ الـرَّوْ ضِ وفيه الصَّفْراءُ والحمراءُ

وأنشد الأَصمعى فى هُزَال المـال :

وطائية تبكِى على أَجْمَالِهَـا ومن مَنَعْنَا الرِّيفَ من عِيَالِهَا

فما تَخَطَّى الطُّنْبَ من تَهْزَالِهَا[٢]

* * *

ويقال : إن الحيوان يَحْتَشِى من اللحم والشحم على قدر سَعَةِ جلده ، ويقال : إن سَعة الجلد من أعون الأُمور على بُعْد الوَثْبة ، وإذا كان فضفاضَ الإهابِ واسع الإبطين ضَابِعًا[٣] وكان طويل العنق لا يسبقُه شئ ، فالبعيرُ يعدُو بطول عُنُقه وبه ينهضُ بحمِلهِ الثقيل بعد بُروكه ، والثورُ يسرعُ بسَعةِ جلده ويبطئُ بالوَقْص[٤] الذى فى عُنقه ، والحمارُ يسرع بطول عنقه ، ويبطئ بضيق جلده ، والفرس يسرع بسعة إبطه وبطولِ عنقه وعِظَم جُفْرته[٥] ، ولذلك قال الشاعر :

ببَطْنِهِ يَعْـدُو الذَّكَرْ

---

(١) ديوانه ١١٩/١ ، وفيه : زهته الصفراء ، وفى العقد ٤١٧/٥ ، كأنه زهر الروض .

(٢) الطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت أو الوتد فى الخيمة .

(٣) الضبع : العضد كلها وأوسطها بلحمها ، أو الإبط أو ما بين الإبط إلى نصف العضد ، ويقال للناقة والبعير : ضابع إذا أسرع فحرك ضبعيه ، وفرس ضابع ، أى شديد الجرى أو كثيره أو يتبع أحد شقيه ويثنى عنقه .

(٤) الوقص : القصر .

(٥) الجفرة : جوف الصدر أو ما يجمع الصدر والجنبين ، ومن الفرس وسطه ، ويقال هو مجفر أى واسعها .

وزعم أبو عبيدة وأبو الحسن : أن الفرسَ ليس له طحَال ، قَالَا : ولذلك لا يَحْتَشِي ريحًا ولا يناله من الرَّبْو ما ينالُ غيره من ذوات الأربع ، قال الشاعر :

رَحِيبُ الجوفِ مُعْتَدلٌ قَراهُ هريتُ الشَّدق فضفاضُ الإهَاب[1]

وقال آخر :

وضاقَ عنه جلدُهُ الفَضْفَاضُ

وأما قول الآخر :

يا سعدُ كيف أنْتَ إذْ أصْحابى عاتَبتهُمُ فتركُوا عِتابِى
وحَلَّ جسمى وانحنتْ أَضْلابِى وكثرتْ فواضِلُ الإهَاب[2]

وهذا عَيْبٌ لأنه وصف شيخاً قد نَحَل جسمه ، وذهب شحمه ولَحْمه ، ودقّ عظمه ورق عَصَبُه ، فماج إهابه وصار فارغاً بعد أن كان مملوءاً ، وإذا صار الجلد كذلك وذهب الذى كان يملأُه وتمدّد وتبسَّط وذهبت البِلَّة وأعقب مكانها التيبُّس تَقَبّض جلده وتشنج إهابه ، ولذلك قال النمر بن تولب[3] :

كأَنَّ مِحَطًّا فى يَدَىْ حَارِثيَّةٍ صَنَاع عَلَتْ مِنِّى به الجلدَ من عَلِ

والمَحَطُّ : مَدْلكةٌ مُمْتَلِئَة يَحطُّ بها أصحابُ المصاحف ظهور جلود رقاب المصاحف ليجعل ذلك الحُزوز نقوشاً ، وما أحسن ما قال

---

(١) القرا : الظهر ، هريت الشدق : واسعه ، انظر البيت فى الخيل لأبى عبيدة ٨٤ ، ٨٧ .

(٢) انظر هذا البيت فى الحيوان ٥/٤٨ .

(٣) البيت فى الحيوان ٥/٤٨ .

النَّمر بن تولب، ولقد جَهدْتُ أن أصيب بيت شعرٍ مثل هذا للعرب فما قدرت عليه ، وكذلك قول عنترة[١] :

فترى الذُّبَابَ بها يُغَنِّى وَحْدَهُ هَزِجاً كفعل الشَّارِب المُتَرَنِّم

غَرِداً يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بذراعِـــهِ فِعْلَ المكبِّ على الزنادِ الأَجْذَمِ[٢]

ووصف الشاعر[٣] الثور فقال :

وأَغْلَبَ فضفاضِ جِلدِ اللَّبَانِ يُدَافع غَبْغَبَـــهُ بالوَظِيف[٤]

ووصف أبو موسى الأشعرى البقرة فقال : إذا صَغُر رأسها ودقّ قرنها واتَّسع جلدها فإنها قد تكون كريمة .

• • •

وليس للإنسان من بين جميع الحيوان جِلْدٌ إذا سُلخ تَبَرأ من اللحم وفَرَق ما بين جلده وسائر الجلود فرق ما بين القرقمان والحوصلة .

---

(١) البيتان ضمن معلقته الشهيرة ، انظر ديوانه ٢١١ ، والبيان ٣٢٦/٣ ، والحيوان ١٢٧/٣ ، ٣١٢ .

(٢) فى الديوان يسن بدل يحك ، وهو فى هذا البيت يشبه الذباب وهو يحك إحدى ذراعيه بالأخرى بأجذم أى رجل مقطوع اليدين يحاول أن يقدح ناراً فهو مكب على الزناد ، وهذا من عجيب التشبيه ودقة الملاحظة الفريدة ، وقد عده أرباب الأدب من التشبيهات العقم أى التى لم يسبق إليها ولم يلحق فيها ويقول الجاحظ فى الحيوان : لو أن امرأ القيس عرض فى هذا المعنى لافتضح .

(٣) هو إسحاق بن حسان الخريمى يصف عيب الثور ، انظر الحيوان ١٩٣/٧ .

(٤) الأغلب : القصير العنق ، وجلد اللبان ، جلد الصدر من ذى الحافر ، والغبغب اللحم المتدلى تحت الحنك ، والوظيف : المفصل فوق الظلف ، هذا وقد سقطت من الأصل كلمة يدافع وأثبتناها من الحيوان .

وقال البقطرى : سَابَقُوا بين فَرِس وحمار وثور ، فجاء الفرسُ سابقاً وشهد ذلك بعض الأعراب ، فقال : ليس المطبَّق كالضَّابع ولا أوقص كالأَعْنق[١] .

يقول : لأَن الحمار طِبْقٌ كَزَّه[٢] رَجْعُ[٣] الإِبْطَيْن لايستطيعُ إذا عَدَا أن يَمُدَّ ضَبْعَيْه كالفرس والكلب ، قال الشاعر :

كم تَضْبَعُونَ[٤] وكم تَأْسُو كُلُومُكُمُ وأنتم ألفُ ألفٍ أو تَزِيدُونا

وقال رُؤْبة :

ولا تَنى أيدٍ علينا تَضْبَعُ بما أَصَبْنَاها وأخرى تَشْفَعُ[٥]

يقول : إذا دعا الله علينا مدَّ ضبعيه ورفعهما إلى السماء ، وقال الراجز :

إنَّ الجِيادَ[٦] الضَّابِعَاتْ

وقال بعض اللُّصوص وهو يتمنَّى أن تُسْتَاقَ أموالُ عبد القيس :

نَجَائِبُ عَبْدِىٍّ يكون بُغَاوةً دَعَا وقد جَاوَزْنَ عَرْضَ الشَّقَائِق

---

(١) المطبق : الذى ساوى جلده أعضاءه ، والضابع : الذى يمد ضبعه فى سيره والضبع العضد ، والأوقص : القصير العنق ، وانظر هذا النص فى الحيوان ١٩٣/٧ .

(٢) الكزه : المتقارب الخطو .

(٣) الرجع : رد اليدين فى السير وهو فعل له صلة بجلد الإبط .

(٤) يضبع : أى يمد ضبعيه للدعاء على أعدائه .

(٥) البيت فى ديوانه ١٧٧ ، والرواية فيه : تطمع بدل تشفع ، والشطر الأول فى مقاييس اللغة ٣٨٨/٣ .

(٦) فى الأصل : الحار بدل الجياد والتصحيح من اللسان مادة ضبع .

(٧) النجيبة : الناقة الكريمة ، والبغاوة : الكسب ، والشقائق : جمع شقيقة وهى المنفرج بين جبلين ينبت العشب .

يقول : ليس عندهم من بذل المجهود إلاَّ الدّعاءُ والابتهالُ على من ظَلَمهم .

ووصف الهُذَلِيُّ الثور وجلده للنعل فقال :

وَصْلُهما جَميلُ[١]

وهم لا يذكُرون جلد الجاموس ولا يعرفون النِّعالَ إلاَّ من البقر والإبل ، ومن ردىء الجلودِ عندهم جلد الضَّبُع وجلد العُتّ ، قال الراجز[٢] :

يا ليت لى نَعْلينِ من جِلْدِ الضَّبُعْ وشُرُكاً[٣] من اسْتِهَا لا يَنْقَطع

كُلّ الحذاءِ يحتذِى الحافِى الوَقِع[٤]

فَعَدّ ذلك بقوله : كلُّ الحذاء يحتذى الحافِى الوقع ، على أنه قد وضعه فى موضع التجوز والاحتمال[٥] .

---

(١) جزء من بيت لأبى خراش الهذلى ، والبيت بتمامه :

بموركتين من صلوى مشب من الثيران عقدهمـــا جميل

وهو من قصيدة يمدح بها صديقا له يقال له « دبية » كان حذاه نعلين ، وأول القصيدة :

حذانى بعد ما خذمت نعالى دبيـــة إنه نعم الخليـــل

ديوان الهذليين ٢/١٤٠ .

وخذمت نعاله : تقطعت ، والموركتان : أى من الورك ، والصلوان : ما فوق الذنب من الوركين ، والمشب : الشاب من الثيران ، وفى الأصل : وصلمهما بدل عقدهما ، وهى تحريف ، وصحتها : وصلهما كما أثبتنا وهى رواية وردت فى معجم البلدان .

(٢) هو أبو المقدام جساس بن قطب كما ورد ذلك فى اللسان وقع ، والعقد الفريد ٣/١٦٣ ، وانظر أبياته بغير نسبة فى البيان ٣/١٠٩ ، والحيوان ٦/٤٤٦ ، ومجمع الأمثال ٢/١٣٦ ، والمفضليات ٣٩١ .

(٣) الشرك جمع شراك : وهو سير النعل .

(٤) الحافى : من أصيبت قدمه بالحفا وهو رقة الجلد ، والوقع : الذى أصيب بالحفا من المشى على الحجارة ونحوها .

(٥) وذلك بقوله : ياليت لى نعلين .. إلخ أى أن ذلك لا يكون حقيقة .

وقال الآخر :

إهابهُ مثلُ إهاب العُثِّ[1]

* * *

ثم رجَع بنا القولُ فى العَرَج والظَّلَع ، قال الحطيئة :

تَسَدَّيْتُهَا من بعد ما نَامَ ظَالعُ الْـ ـكلابِ وأَخْبَى نَارَهُ كلُّ مُوقِدِ[2]

قال الأَصمعىُّ فى ظَلَع الكلابِ وزَعَم أن الكلب إذا أصاب رِجْلَه شىءٌ قطع[3] ، وهو يريدُ سِفَاد الكلبة ويخافُ أن تمنَعه الكلاب السليمة الأَبدان ، وهو ينتظر نومَها وهى لا تنام حتى تملَّ من النُّباح والتجاوب ويهدأ كلُّ رِجْلٍ منها ، ولذلك قال :

أَخْبى نارَه كلُّ مُوقِـدِ

وقال الآخر : لا ، ولكنّ الكلبَ الظالعَ هو الهائجُ ، ويقال للكلب ظلع إذا هاج ، وأنشد :

يبيتُ يشكو وَجَعاً ولا وَجَـعْ وَهْوَ إذا أُعطِىَ زاداً ابْتَلَعْ

أَسْرعُ شىءٍ عَـدْوُهُ إلى الطمعْ كأَنَّه الكلبُ إذا الكلبُ ظَلَعْ

---

(١) العث : دويبة تفر من كل شىءٍ ، وليس له خطر ولا قوة ولا بدن ، وانظر هذا البيت من الرجز مع بيتين آخرين فى الحيوان ٣٤٢/٦ ، ٣٤٦ .

(٢) لم يرد هذا البيت فى ديوانه ، وهو بالرواية التى هنا فى الحيوان ٦٠/٢ ، وفى اللسان ظلع : تسديتها قال : وهو يخاطب خيال امرأة طرقه ، وفى مجمع الأمثال ٢٦/١ : ألا طرقتنا ، وتسداها : علاها ، وقال الميدانى فى تفسير البيت : إنه مثل فى تأخير قضاء الحاجة .

(٣) هكذا فى الأصل ولعل صحتها ظلع ، والنص بمعناه فى الحيوان ومجمع الأمثال .

وقال الآخر : بل الكلبُ إذا هاج اعتراه بعضُ الخُماع ، فإذا مشى رأيتَه كأنَّه يظْلع ، وقد قال الطُّفَيْل :

وقد سَمِنَتْ حتَّى كأنَّ مَخَاضَها تَفَشَّغَها ظَلْعٌ وليستْ بِظُلَّع

وقال ابنُ عَنْمَاء الْفَزَارِيّ :

أمـرًّا على عُوجٍ طُوَالٍ كأنَّها وليس بهظَلْعٌ من الخَمْصِ ظَالعُ[1]

يقول : ليس به ظَلَعٌ من علَّة حادثة سوى الظَّلَع الذى رُكِّب عليه فى أَصْل الخلقة ، لأنه أَقْزَل والأَقزال أسوأُ حالاً من كثير من العُرجان ، لأن الذئبَ لا يزال مُضْطربا فى مِشْيته ، ونَسَاهُ أشد تَشَنُّجاً من نَسَاءِ الفرس والغُرَاب ، والذئبُ أَقْزلَ مرثُومُ[2] الخَطْم بسوادٍ سائل الأنف ، وكذلك أنفُ البقرة يكون سائلاً ومرثُوماً بَسَواد ، وكذلك الكلب ، وأمّا قولُ الشاعر :

غَادَاكَ ذِئْبٌ سَلْجَمٌ[3] أنيابُـهْ يَسْبِقُ حَـدَّ نابِهِ لُعَابُـهْ

فإنما ذكر ذلك على جهة المَثَل ، كما قال الشاعرُ :

وبنو نُهَيْرٍ قـد لَقِينَا جَمْعَهُمْ خُبْلٌ تَضِبُّ لَثَاتُهَا[4] للمَغْنَم

وقال الآخر :

ضَبَّتْ لَثَاتُ بنى عمرٍو لوقْعَتِهِم يوم النُّجَيْرِ وكانوا مَعْشراً حُشْدَا

---

(١) البيت من قصيدة له فى وصف الذئب ؛ انظر المؤتلف ١٥٨ ، وأمالى المرتضى ١٢/٢ ، ورواية صدر البيت فيهما : بغى كسبه أطراف ليل كأنه .

(٢) المرثوم : الملطخ .

(٣) السلجم : الحاد .

(٤) تضب لثاتها : تسيل بالريق .

وإنما هذا على جهة المَثَل ، لأن الإنسان ما دام له ريقٌ فهو حَيٌّ ، وصاحب النَزْع والذى يكيدُ بنَفْسِه يجفُّ ريقه جُفوفاً شديداً ، وعلى حسابِ ذلك يُصيبُ المحزونَ ، والجبانُ فى الحرب والخائفُ يشتد عطشهما ويجفُّ ريقُهما ، وقال ابن أحمر :

هذا الثناءُ وأَجْدِرْ أن أُصَاحِبَهُ وقد يُدَوِّمُ ريقَ الطَّامع الأَمَلُ[1]

وقد قال الآخر :

. . إذا ما اسْتَيْبَسَ الريقَ عَاصبْهُ[2]

وقال الزُّبير بن العَوام وهو يرقِّص عُروة بن الزبير :

أبيضُ من آل أبى عَتِيق مباركٌ من وَلَدِ الصِّدِّيق
أَلَذُّهُ كما أَلَذُّ رِيقِى[3]

وقال بشَّار :

رهبةً أو رَغْبةً فى وُدِّه إنَّه إنْ شَاء أَحْلَى وأَمَرْ
يَتَّقِى الموتَ به أَشْيَاعُهُ حين جَفَّ الريقُ وانشقَّ البَصَرْ[4]

* * *

---

(١) البيت فى سمط اللآلى ١٢٧ ، والبيان ١٣٣/١ ، والحيوان ٢٣١/١ ، ٤٧/٣ .

(٢) جزء بيت تكملته :

وإن لقحت أيدى الخصوم وجدتنى نصوراً ... ...

اللسان ٩٨/٢ .

وعصب الريق بفيه : جف ويبس ، وفى الأصل : استيأس وهى تحريف .

(٣) انظر هذه الأبيات فى المستطرف ١١/٢ ، عيون الأخبار ٩٥/٣ ، العقد الفريد ٤٣٩/٢ ، اللسان ٤٣/٥ .

(٤) البيتان فى ديوانه ٣٩٢/٣–٢٩٤ ، وفى الأصل : يبق المؤونة أشياعه ، تحريف .

وقالوا فى سواد مِنْخَر الذئب والكلب ، قال الشاعر ووصف ذئبة :

مَأْلُولةُ الأُذْنَيْنِ كحلاء العَيْن ومِنْخَرَيْنِ خُلقَا مُسْوَدَّيْن[١]

وقال الطِّرِمَّاحُ أيضاً فى سواد لثام الذئب[٢] :

وفــلاة يستفِزُّ الحَشَــا مِن صُوَاهَا ضَبْحُ بُومٍ وهَامْ[٣]
تفْجأُ الذئب بهــا قائماً أبرق النَّحْرِ أحَمَّ اللِّثَامْ[٤]

فزعم كما ترى أنه أحَمُّ اللثام ، وكذلك وصف الشاعرُ الكلب ، فقال :

وأغْضَفَ الأُذْنِ طَاوِى البطنِ مُضْطَمِرٍ لِوَهْوَهٍ رَذِمِ الخَيْشُومِ هَـرَّارِ[٥]

وقال كعبُ بن زهير يذكر سيلان أنف الذئب[٦] :

قالت أَراهطُ من عَوْفٍ ومن جُشَمٍ يا كعبُ ويحك هَلَّا تَشْترى غَنَمَا[٧]

---

(١) البيتان ضمن سبعة أبيات من الرجز ، ساقها ابن قتيبة فى المعانى الكبير ١٩٧ . قائلا : أنشد أبو زيد ، والمألولة : المنتصبة الأذنين المحددتهما .

(٢) البيتان فى ديوانه ٤٥ ، ٤٦ ، والثانى فى اللسان لثم .

(٣) يستفز الحشا : أى يستخفها ويجعلها تضطرب من الذعر والفزع ، والصوى : أعلام من حجارة تنصب فى الفلاة يستدل بها المسافرون على الطريق واحدتها صوة ، وفى الأصل : طواها بدل صواها وهو تحريف . والضبح : الصياح ، والهام : جمع هامة وهو طائر كانوا يزعمون أنه يخرج من رأس القتيل إذا لم يدرك بثأره فيصيح .

(٤) رواية الديوان : أبرق اللون ، والأبرق : الذى فى لونه بياض وسواد ، وأحم اللثام : أسود الفم .

(٥) البيت شديد التصحيف فى الأصل وهو فى الحيوان ١٧٠/٢ ، والأغضف : المنكسر الأذن ، والمضطمر : المهزول انضامر البطن ، والوهوه : الكلب فى صوته جزع ، ورذم الخيشوم سائله ، والهرير : صوت دون النباح لقلة الصبر على البرد .

(٦) البيتان فى محاضرات الأدباء ٢٩٧/٢ ، والثانى فى المفضليات ٥٠٥ .

(٧) فى المحاضرات : تقول حياى بدل قالت أراهط ، ولم لا بدل هلا .

مَنْ لِيَ منها إذا ما أَزْمَةٌ أَزَمَتْ ومن أُوَيْسٍ إذا ما أَنْفُهُ رَدَمَا[١]

واسم الذئب أوس ، فلما صَغَّره قال أُوَيس ، وقال الشاعر :

ما فَعَل اليومَ أُوَيْسٌ فى الغَنَمْ[٢]

وقال الطِّرِمَّاحُ : أبرق النحر ، هو مِثلُ قول عمرو بن معدى كرب[٣] :

وكم من غائطٍ من دون سَلْمَى قليلِ البُوم ليس بها كتيعُ[٤]

يُرَى السِّرْحانُ مفترشاً يَدَيْهِ كأَنَّ بياضَ لَبَّتِهِ الصَّدِيعُ[٥]

لأن الأبرقَ يكون سَواده مخالطاً للبياض ، والصَّديعُ هو الفجر ، والفجر مختلطٌ بياض النهار ببقية سواد الليل ، وأما قوله :

لكلِّ رِيحٍ لَقِحَتْ مَعَدَّيْنْ[٦]

---

(١) رواية المحاضرات : من لى بهن إذا ما أزمة جلبت ، ورواية المفضليات : من لى بها إذا ما جلبة أزمت ، ومعنى ردم أنفه : سال ، وفى الأصل : رزما بالزاى تحريف .

(٢) بيت من الرجز ورد ضمن أربعة أبيات فى اللسان ٢٣٢/٤ منسوباً لعمرو ذى الكلب ، وانظر الحيوان ١٩٨/١ .

(٣) البيتان فى الأصمعيات١٧٦ ، والأول فى اللسان ١٨٠/١٠ ، والثانى فى ٦٢/١٠ .

(٤) فى الأصمعيات : قليل الأنس بدل البوم ، وبه بدل بها .

(٥) رواية الأصمعيات : به السرحان بدل يرى .

(٦) انظر هذا الشطر فى محاضرات الأدباء ٢٥٨/٢ ، وضمن سبعة أبيات فى المعانى الكبير ١٩٧ وقد سبقت الإشارة إلى بعضها ، ومعدين : أى يجذب العدو إليها جذبا ، ورواية المعانى الكبير : نفخت بدل لقحت ، وقال : يعنى أنها تستروح فإذا وجدت ريح شىء طلبته .

فقد وصف الراجزُ[١] استرواحَ الذئبَ وحرصه على استنشاق الريح ، فقال :

يَسْتَخْبِرُ الرِّيحَ إذا لم يَسْمَعِ بمِثْلِ مقْرَاعِ الصَّفَا المُوقَّعِ[٢]

* * *

ومن العُرجان ، ثم من رؤساء المتكلمين ، ومن مشايخ المعتزلة ، ومن أرباب النحل ، ومن العلماء باختلاف المِلَل ، وكان أعلمَ من رأينا من الخوارج ، وكان قد أربى على المائة وهو أبو كَلَدَة ، وهو الذى قال له النَّضْرُ بن إسماعيل القاصُّ البليغُ الشجاع وكُنيته أبوالمنذر ، وكان رئيس الشُّعوبية : قُبلت بالبصرة يا أبا كَلَدة ، إن لَكَ شَرَجاً وإنَّ لى شَرَجا فاطلب شَرَجك فيما بينهما وفيما بين بينهما إن كان بين بينهما بَوْن ، قال أبو كلدة : يا أبا المنذر ! هذه رُقْية وأنا رجلٌ أعرج ، فاقصد بها رِجْلى فلعل الله أن يرزقَنى على يديك الشفاء .

والنضرُ هو الذى لما سُئل عن خلق الكلام قال : منه الحروف ومنك التأليف ، كما كان منه النتاج ومنك الكَنِيف .

وقال له رجل : أَضَحِّى بالجَذَعِ من الضَّأْنِ[٣] ؟ فقال : إذا تجنبت المَسَانّ والمهازيل من السمان[٤] .

* * *

---

(١) هو أبو الرديني العكلى كما ورد ذلك فى الحيوان ٣٤/١ ، ١٣٢/٤ ، وانظر محاضرات الأدباء ٢٩٨/٢ ، واللسان « قرع » .

(٢) أى بأنف مثل المقراع ، أى الفأس التى تكسر بها الصخر ، والموقع : المحدد .

(٣) الجذع من الضأن : ما بلغ ثمانية أشهر أو تسعة .

(٤) في الأصل : إذا كنت السان .

ومن العُرجان ، مالك بن المحراس ، كُسرَت رجله يوم الهَبَاءة فعرج .

* * *

ومن العُرجان الفقهاء البلغاء ، أبو العلاء يزيد بن الشِّخِّير أخو مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير[١] .

* * *

ومن العُرجان الأشراف ومن أهل العارضة واللَّسنِ والجَلَد ، إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيدِ الله[٢] أخو حسن بن حسن لأُمه ، قالوا : وكان قد غلب على أموالهم حتى شكوا ذلك إلى أبي هاشم عبد الله محمد بن علىّ بن أبي طالب[٣] ، فدخل على والى المدينة فلما رآه عنده قال : ألا أدلُّك أيها الأمير على الظالم الضَّالع الظَّالع ، فى كلام غير هذا قد عرضه الرواة .

* * *

---

(١) مطرف بن عبد الله بن الشخير من بنى الحريش بن كعب بن ربيعة ، فقيه صالح زاهد ، كانت لأبيه صحبة ، وكان ينزل ماء يقال له الشخير على ثلاث ليال من البصرة ويأتى البصرة يوم الجمعة ، فيقال إنه كان ينور له فى سوطه ، توفى مطرف سنة ٨٧ هـ ، وتوفى أخوه يزيد سنة ١١١ هـ ، انظر المعارف ٤٣٦ .

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله ، كان أصلع أعرج سيدا يسمى أسد الحجاز ، واستعمله عبد الله بن الزبير على خراج الكوفة ، وأمه هى خولة بنت زبان بن منظور الفزارى وكان الحسن بن على رضوان الله عليهما قد تزوجها فولدت له الحسن ثم خلف عليها من بعده محمد بن طلحة فولدت له إبراهيم ، انظر المعارف ٢٣٢ ، ١١٢ فى الأصل بن عبد الله بن محمد.

(٣) هو إمام الشيعة ، وكان عظيم القدر ، حضرته الوفاة بالشام فأوصى إلى محمد بن على ابن عبد الله بن عباس ، وقال له : أنت صاحب هذا الأمر ودفع إليه كتبه وصرف الشيعة إليه ، انظر المعارف ٢١٧ ، جمهرة الأنساب ٦٦ .

وقال حُمَيْد بن ثَوْر الهلالىُّ[١] :

كَفَى حَـزَناً ألاَّ أَرُدَّ مطيَّتى ... ... [٢]مستزاد إلى أهلى

وألاَّ أَدُلَّ القَوْمَ والليلُ دامِسٌ فِجاجَ الصُّوَى بالليل فى الغَائِط المحْل

ولايتَّقِى الأعداءُ شَرِّى وقد يُرى مكانُ سَوَادى لا أمرُّ ولا أُحْلِى

وطَرْحِي سِلَاحِي واحْتِبَائِيَ قاعِداً لَدَى البيت لا يَبْلَى تِرَاكِى ولانَعْلِى

وإيصَابَتى[٣] أهلى الضعيفَ مَخَافَةَ علىَّ وما قام الحواضنَ عن مِثْلِى

أعينُ العَصَا بالرَّجْلِ والرِّجْلَ بالعصا فما عَدَّلَتْ مثلى عَصَاىَ ولا رِجْلِى

هذا رجلٌ يصفُ الكِبرَ والضَّعْفَ الذى يعترى الهَرْمَى ، وليس يحمل أحدهم العصا على جهة حمل الأعرج[٤] ، ولكنه مما يجوز أن يدخل فى هذا الباب .

* * *

والعَرَجُ أيضاً يعرضُ من أُمور كثيرة ، وقد علمنا أنَّ صاحب النِّقْرِس[٥] أسوأُ حالًا إذا تكلف المشى من الأعرج ، كما كان يصيب

---

(١) لم ترد الأبيات التالية فى ديوانه ، ووردت فيه أبيات من القصيدة نفسها فى ص ١٢٨ .

(٢) بياض بالأصل :

(٣) إيصابتى مأخوذ من أوصب الأمر وعلى الأمر إذا واظب وأحسن القيام عليه .

(٤) فى الأصل : على حمل جهة الأعرج ، وهى مضطربة كما لا يخفى .

(٥) النقرس بكسر النون : ورم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين .

هرثمة بن أعين[١] ونصر بن شَبَث[٢] وإسماعيل بن نَيبخت[٣] .

* * *

وكان العلاءُ بن الوضَّاح يوتِّدُ سِكَّةَ حَديدٍ فى الأرض حتى يُغْرِقَها ، ثم يشد سَاقَهُ بها ، ثم يضع رجلَه اليسرى فى الرِّكاب ويثب فيقلَع السِّكة ويستوى على ظهر الفرس كأنه لم يصنع شيئاً من شدة مَتْنِهِ[٤] وقوة عَصَبِه وتَوْتير نَسَاه ، فانقطعتْ فى بعض ذلك عَصَبةٌ من ساقه فكان أسوأَ حالًا من الأعرج ، ولقد رأيتُه بالمنازل فى غَدَاةٍ قَرَّةٍ[٥] وهو على فرس له سَرْج ولجام[٦] فى قُبَاطان[٧] فما رأيتُ مثله أشد[٨] ولا أفْرس .

* * *

ومن العُرجان الأشراف السَّادة ، ومن قدَّمتْه العشائرُ طَوْعاً ورأَسَتْه

---

(١) أحد القواد العباسيين ، ولاه الرشيد مصر سنة ١٧٨ هـ ، ثم أفريقية ثم عقد له على خراسان ، وكان قائد جيش المأمون فى الفتنة التى وقعت بينه وبين أخيه الأمين ، ثم غضب عليه وحبسه حتى مات سنة ٢٠٠ هـ ، النجوم الزاهرة .

(٢) من بنى عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، خرج على المأمون بكيسوم من نو احى الجزيرة وظل يحاربه خمس سنوات ، حتى أرسل إليه المأمون عبد الله بن طاهر فاستنزله من حصنه وأمنه ثم أرسله إلى المأمون ، انظر جمهرة الأنساب ٢٩١ ، المعارف ٣٩٠ ، كامل ابن الأثير حوادث سنة ٢٠٩ هـ .

(٣) إسماعيل بن نيبخت أو نوبخت ، كان نديماً للخليفة المأمون وهجاه أبونواس كثيراً لبخله ، انظر الحيوان ١٢٩/٣ ، كتاب بغداد ١٦١ .

(٤) المتن : الصلب وهو عظم الإنسان من الكاهل حتى العجب .

(٥) فى الأصل : عذافرة وهى تحريف ، والغداة : أول النهار من طلوع الفجر إلى شروق الشمس ، والقرة : الباردة .

(٦) فى الأصل : مرج جام ، ولعلها كما أثبت .

(٧) القباطان بضم القاف وفتحها نوع من الثياب ينسب إلى قبط مصر ، وهو ما يعرف بالقفطان .

(٨) فى الأصل : أسد .

الخلفاءُ اختياراً وتَحَفَّظ الناسُ كلامَه ودوَّنوا ألفاظَه واقتبسُوا من علمه ، وفى طُول ما مَدَح الله به عِبَاده والصَّالحين بالأَسماء الكريمة ووصفهم بالخِصال الشريفة ، لم يمدْحهم بشىءٍ أقلّ من ذكره لهم بالحِلْم ، ولم نجد ذلك فى القرآن إلاَّ فى موضعين[1] ، وقد وصف الناسُ بالحلم عَاداً فى الجُملة ، كما قال النابغة :

أَحلامُ عادٍ وأَجْسَادٌ مطهَّـــرةٌ من المَعَقَّـــةِ والآفاتِ والأُثُم[2]

وقد ذكروا فى الشعر حلم لقمان، ونُقَيم بن لُقمان[3] ، وذكروا قيس ابن عاصم ومعاوية بن أَبى سفيان ورجالا كثيراً ، ما رأَينا هذا الاسم التزق والتحم بإنسان وظهر على الأَلسن كما رأَيناه تهيأَ للأَحنف ابن قيس ، وكان مع ذلك رئيساً فى أَكثر تلك الفتن فلم نر حاله عند الخاصة والعامة وعند النساك والفُتَّاك ، وعند الخلفاء الراشدين والملوك المتغلبين ولاحاله فى حياته ولاحاله بعد موته إلا مستوياً . فينبغى أَن تكون قد سبقت له من النبى صلى الله عليه وسلم دعوة

---

(١) وذلك فى وصف إبراهيم الخليل عليه السلام بقوله تعالى : « إن إبراهيم لأواه حليم » سورة التوبة الآية ١١٤ ، وقوله جل ذكره : « إن إبراهيم لحليم أواه منيب » سورة هود الآية ٧٥ .

(٢) انظر ديوان النابغة ١٢٧ ، والمعقة : العقوق .

(٣) أما لقمان فهو ابن عاد الأكبر أحد المعمرين ، وهو الذى يقال إنه أعطى عمر سبعة نسور كان آخرهم لبداً ، انظر ثمار القلوب ٤٧٦ ، والمعمرين ٤٥ ، ومجمع الأمثال ٣٧٩/٢ وأما لقيم فهو ابن لقمان من أخته ، وذلك أن أخت لقمان قالت لامرأته : إنى امرأة محمقة (أى تلد أولاداً حمقى) ولقمان رجل محكم منجب ، فهبى لى ليلتك ، ففعلت فباتت فى بيت امرأة لقمان فأتت منه بلقيم ، ولم يعلم هو بهذا الأمر ، وفى هذا يقول انمر بن تولب :

لقيم ابن لقمان من أخته فكان ابن أخت له وابنا
ليـــالى حمـــق فاستحصنت عليـــه فغر بهـــا مظلما
فغـــر بهـــا رجـــل محكم فجاءت بـــه ولداً محكما

انظر البيان ١٨٤/١ ، ١٨٥ ، والسمط ٧٤٣ .

أو قال فيه خيراً كما رووه وذكروه[١] ، أوكان قد ظهر منه من حُسْن النية ومن شدة الإخلاص ما لم يكن عليه أحد من نُظَرائه .

فإن قال قائل : أنتم تزعمون أن عبد المطلب أحلم الناس وكذلك العَبّاس بن عبد المطلب ، قلنا : إن الأحنف كان الحلم غالباً عليه فبان من سائر أعماله ، ومحاسن عبد المطلب وخصال العباس فى المجد والشرف كانت متكافئة متساوية ، كل خصلة منها تنتصف من أختها وكانت كما قال الشاعر :

أنّى غَرِضْتُ إلى تَنَاصُفِ وجهها غَرَضَ المُحبِّ إلى الحبيب الغائب[٢]

وكذلك قوله[٣] :

جاءت تهضُّ الأرض أىَّ هَضِّ يـــدفع منها بعضُها عن بعضِ
مثل العذارى شِمْنَ عينَ الْمُغْضى

وقال جرير فى شبه ذلك[٤] :

بَرَزْنَ فلا ذُو اللبِّ وقَّرنَ عَقْلَـهُ وقُلْن فلم يفضحْ بهنَّ مُرِيبُ

---

(١) انظر الإصابة الترجمة ٢١٤ ، وفيها أن النبى صلى الله عليه وسلم حينما أرسل إلى بنى تميم يدعوهم إلى الإسلام حكّم الأحنف على قبوله ، فدعا له النبى وإن لم يره .

(٢) البيت لابن هرمة ديوانه ٦٥ ، والكامل للمبرد ٢١/١ ، الأضداد لابن الأنبارى ١٠٧ ، واللسان نصف وغرض ، شروح سقط الزند ٦٥٦ وانظر النص بتمامه فى ثمار القلوب ٩٠ وغرضت : أى اشتقت ، وتناصف الوجه : محاسنه التى تقسمت الحسن فناصفته أى أنصف بعضها بعضا فاستوت فيه .

(٣) الرجز فى اللسان ١١٦/٩ ، ١١٧ ، منسوب لركاض الدبيرى ، وتهض : تدق دقا شديداً وشن عين المغضى أى استللنها ، وفى الأصل : سمن وهى تحريف .

(٤) لم يرد هذا البيت فى ديوانه .

وقال قيسُ بن الخطيم[١]

تَغْترقُ الطَّرْفَ[٢] وهى سَاهِمةٌ كأَنَّما شَفَّ وَجْهَهَا النُّزُفُ

وهذا البيت ليس من الشكل الأول ولكنَّه مما يتعلَّق به ويُرْوَى معه

وإذا كانت الخصال كذلك لم يَغْلب على صاحبه اسمٌ دون اسم ، ورجع الأمر فيه إلى أن يُسَمَّى سيداً وما أشبه ذلك ، والنُّبُوة تأتى على الغايات وتجوز النِّهايات .

وكان الأَحنفُ أَحْنَفَ من رجليه جميعًا[٣] ولم يكن له إلاَّ بيضةٌ واحدة ، وكان قد ضُرب على رأسه بخراسان فماهت[٤] إحدى عينيه ، وقال الحُتَاتُ[٥] : إنك لضئيلٌ وإن أُمك لورهاءُ ، وقال أبوالحسن : ولد الأَحنف مُرْتَتَقَ حِتَارِ[٦] الاست حتى فُتِق وعولج ، فإن كانت

---

(١) ديوانه ٣٩ ، والأغانى ١٦٣/٢ واللسان ٨٢/١١ ، ٢٣٩ ، ١٥٨/١٢ ، والأصمعيات ١٩٧ .والسمط ٤٢٣ ، والرواية فيها : لاهية بدل ساهية .

(٢) تغترق الطرف ، تشغله بالنظر إليها عن النظر إلى غيرها لحسنها ، والنزف بضم النون : الضعف الحادث عن النزف ، والرواية فى المراجع كلها نزف بدل النزف الواردة هنا .

(٣) ولهذا سمى الأحنف واسمه صخر ، والحنف : الاعوجاج فى الرجل وأن يقبل إحدى إبهامى رجليه على الأخرى ، أو أن يمشى على ظهر قدميه من ناحية الخنصر أو ميل فى صدر القدم .

(٤) ماهت : أى سال ماؤها .

(٥) هو الحتات بن يزيد بن علقمة التيمى الدارمى المجاشعى ، أحد من وفد من بنى تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآخى الرسول بينه وبين معاوية ، فمات الحتات فى خلافته فورثه بالأخوة وكان ذلك مما أثار الفرزدق فطالب فى شعره برد ماله على عشيرته ، وكان الحتات ينفس على الأحنف رئاسته ، انظر السيرة ٥٦١/١ ، والنقائض ٦٠٨ ، وسوف ترد بعض أخباره فيما يلى من صفحات الكتاب .

(٦) حتار الاست : شرجها ويقال هو الدائرة نفسها ، وفى الأصل : حياز وهى تحريف .

هذه الصفات كذباً وباطلا فإنا لانشك أن الحسد الذى أخرج من أعدائه هذه الأُمور لم يكن إلاَّ على نِعْمة سابغة غامرة ، وإلاَّ على خِصال عالية فاضلة ، ثم لم يضرَّهُ ذلك ولاوضع منه ، ولا زادته الأيّام إلارفعةً والحالات إلاَّ رياسة ، وإن كانتْ هذه الخصالُ قد كانت فيه وكانت معلومةً معروفة ، لم تَنْقُصْ من قَدْرِهِ عُرْوة ، ولا فَتَحَتْ من معاقد رياسته عُقْدة ، فيعلم الطاعنُ عليه أنه إنما يريدُ أن يَطْمِسَ عين الشمس ، ويردّ هبوب الرِّيح ، كان أبين النَّاس فى كل حال ، وأخطبهم فى يوم حَفْلٍ وَمَصْنَع ، وفى يوم أُنْسٍ واسْترسال ، وهو صاحب الراية بخراسان ، وقد انغمس فى حومة الحرب ثلاث مرات وهو يقول :

إنَّ على كلّ رئيس حَقَّـــا أَن يَخْضِبَ الصَّعْدَةَ أو تَنْشَقَا[1]

وسار تحت لوائه الأَقرعُ بن حَابِس ، وكان واليه على الجُوزَجَان[2] ومشى فى جنازته مُصْعَبُ بن الزُّبير بغير حذاءٍ ولا رِدَاء ، مع علمه بما قال النـــاس فى شأْنه وشأْن ابن جَرْمُـــوز ، وكان مع ذلك لا يَرَى الحَكَمَيْن ، وهو الذى قال لرسولِ قَطَرِىٍّ ولرائده وبغيّه والمبّلغ

---

(١) كان ذلك حينما بعث به عمر على جيش قبل خراسان فبيتهم العدو ليلا وفرقوا جيوشهم أربع فرق ، وأقبلوا معهم الطبل ، ففزع الناس ، وكان أول من ركب الأحنف فأخذ سيفه وتقلده ثم مضى نحو الصوت وهو يقول البيت ، ثم حمل على صاحب الطبل فقتله ، انظر عيون الأخبار ١٧٤/١ ، وانظر البيت أيضا فى اللسان ٢٤٢/٢ ، والصعدة : القناة التى تنبت مستوية .

(٢) كورة واسعة من كور بلخ بخراسان وهى بين مرو الروز وبلخ من مدنها الأنبار وفارياب ، انظر معجم البلدان ١٤٩/ ففيه الخبر الوارد هنا أيضاً .

عنه : إن ركبوا بَنَاتِ شَحَّاج[1] وقادوا بنات أعوج وأصبحُوا ببَلدةٍ وأمسوا بأُخرى ، طال أمرُهم .

وهو الذى قال لمّا طَمع فيه عبد الملك للجَفْوة التى حَدَثَتْ بينه وبين مُصْعب وجرّد إليه رَسُولاً ، فقال للرسول : أبلغ صاحبَك أنّه إن لم يَغْزُنَا لم نَغْزُه ، وإن أتانا لم نقاتلْه ، فعندها قوى عبدُ الملك فى نفسه .

ومّما يدلُّ على تَواضعه وحسن نيّته ، وعلى أنه لم يَعُمَّ بالرأى ولم يَخُصّ ، مما رووا من شَأْن الرجل الذى قال له : ما يمنعُك من دخول المقصورة ؟ قال : فأنت ما يمنعُك من دُخُولها ، قال : لاأُتْرَك ، قال : فلذلك لا أدخلها .

وتكلّم النّاس عند معاوية فى توكيد بَيْعَةِ يزيد والأَحنفُ ساكتٌ ، فقال معاوية : لم لا تتكلّم يا أبا بحر ؟ قال : أخافكَ إن صدقتُك ، وأخاف الله إن كذبتُك .

وأطرى رجلٌ من قريشٍ يزيدَ بن معاوية عند معاوية ، فلما خرج النّاس أقبل على الأحنف فقال : إنّى والله وإن قلتُ الذى قلتُ رَغْبةً أو رهبة فإنّه ما علمت للّذى . . . وإن ابنَه ما علمتَ للذى . . . ، قال الأَحنفُ : إن ذا الوَجْهَيْن لايكونُ عند الله وجيهاً[2] .

---

(١) بنات شحاج هى البغال ، وفى الأصل بباب صحاج تحريف ، وبنات أعوج المقصود بها الأعوجيات وهى سلالة فرس تدعى أعوج كان لكندة فأخذته سليم ثم صار إلى بنى هلال أو صار إليهم من بنى آكل المرار ، انظر القاموس (عوج) .

(٢) انظر هذا الخبر والذى قبله بمعناهما فى كامل المبرد ٣٠/١ ، والبيان ١٤٩/٢ ، ونص الخبر الثانى فيهما أن الرجل قال : يا أبابحر : إنى لأعلم أن شر من خلق الله هذا وابنه ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأثقال فلسنا نطمع فى استخراجها إلا بما سمعت ، فقال له الأحنف : يا هذا أمسك فإن ذا الوجهين خليق ألا يكون وجيها .

وشهد مصعباً يوماً وهو يُوَبِّخُ رجلًا ويقرِّعه ، ويقول : أبلغنى عنك الثقةُ كذا وأبلغنى عنك الثقةُ كذا ، فقال الأحنفُ : كلاَّ أيّها الأمير ، إنَّ الثِّقَة لا يُبَلِّغ[1] .

هذا الذى كتبتُ لك قليلٌ من كثير ، ولم نُرد الإخبار عن بلاغة لسانه ولا عن كثرة معرفته ، وإنما أردت أن تعرفَ حُسن نيّته ، وكتب عمرُ بن الخطَّاب إلى سعد بن أبى وقَّاص : « يا سعدُ سَعْدَ بنى وُهَيب[2] ، إنَّ اللهَ إذا أحبّ عبداً حَبَّبه إلى خَلْقِه ، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس ، واعلم أنَّ ما لك عند الله مثل ما لله عندك[2] » . فنحنُ نظنّ أنّ هذه المنزلة التى صارتْ للأحنف فى قلوب النَّاس لمنزلةِ الإسلام من قلبه ، وهو الذى لما دخل فى الوفد على مُسَيْلِمة الكَذَّاب فخرج من عنده ، فقال له بعضُ رؤساء القوم : كيف رأيتَه ؟ قال : واللهِ ما هو بنبيٍّ صادق ولا مُتَنبيءٍ حاذق[3] .

وهو الذى لما وفد على عُمر وتنازعوا الكلامَ عنده أمسك حتى كان عُمر هو المستنطِقَ له الكلام ، وخصّ القومُ بالكلام عُمَرَ وذكروا شأْن أنفسهم ، وتكلَّم الأحنف عمّن غاب من مجلسهم فتكلَّم فى مصلحة البلاد والعباد ، وسنذكُر فِقَراً من كلامه فى كتاب « البيان والتبيان » إن شاء الله ، وبالله التوفيق .

* * *

---

(١) انظر عيون الأخبار ٢/٢٠ .

(٢) فى الأصل : وهب وهو خطأ وهو سعد بن مالك بن وهيب أو أهيب القرشى الزهرى أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وقائد المسلمين فى القادسية ، ترجمته فى الإصابة الترجمة ٣١٨٧ وانظر وصية عمر التالية له فى البيان ١/٢٦١ .

(٣) الخبر فى أمالى المرتضى ١/٢٩٢ .

ومن العُرجان ثم من الملوك يَزْدَجِرد بن شهريار بن شيرويه بن كِسرى بروازْ[١] ، وطئ بخراسان أيام خرج من العراق امرأةً فولدت ابناً مُخْدَجاً[٢] ذاهب الشِّق ، وكان عَرَجُ يزدجرد من قِبَل نقصانٍ كان بوركه ، وقيل لجدّه : إنه سيكونُ ذهابُ ملككم على رأس غلام أعرج ناقص الوَرِك، فعَزم على قتله حتى صرفته عن ذلك سيرين .

* * *

قال أبو عبد الرحمن : كان أنو شروان أعور ، وكان يَزْدَجِرد أعرج ، والحارثُ الملك الأصغر[٣] الغسانيّ أعرج ، وكان جَذيمةُ ابن مالك[٤] الوضاح أبرص ، وعَمِيَ صَصة أبو زاهر بن صصة ملك الهند قبل أن يموت بسنة ، وكان يزيدُ بن عبد الملك أفْقم ، وكان هشام أحْوَل ، وكان مروانُ الحمارُ أشقَر أزْرق . وكان النعمانُ ابن المنذر أحمر العين أحمر اللون .

ولم يكن فى أصحابنا مذ هلك أبو العباس إلى مُلك المتوكل إلاَّ سليم الجوارح نقيًّا من الأُبَن[٥] صحيح الأعضاء جميل المنظر بهىّ الرُّوَاء ، فأما الصلع فإنه انقطع بعد مروان بن الحكم ، فلم يكن فى ملوكهم ولا فى خلفائنا أصلع إلى يومنا هذا .

* * *

---

(١) فى جمهرة الأنساب ٥١١ ، والمعارف ٦٦٦ أنه يزد جرد بن شهريار بن برويز أو أبرويز ، وكان آخر ملوك الفرس قبل الفتح الإسلامى .

(٢) المخدج : المولود قبل تمام أشهر الحمل .

(٣) انظر ماسبق أن ذكرناه فى هامش رقم ١ ص١١٣ من أن الصحيح أن الأوسط هو الأعرج.

(٤) فى الأصل : جذيمة بن عبد الملك ، وهو خطأ ، انظر جمهرة الأنساب ٢٧٩ .

(٥) الأبن : جمع أبنة وهى العيب ، وفى الأصل : الأبر وهى تحريف .

ومن العُرجان : سَلْمَانُ بن ربيعة الباهليّ[١] ، وهو سلمانُ الخَيْل ، كان أبْصَرَ النَّاس بعنقِ دابّة ، وأبصرهم بإقرافٍ وهُجنة[٢] ، وأعلمهم بخارجيٍّ وعَرِيقٍ[٣] وبَهْم[٤] وبَعير ، ويعرفُ السابقَ من المُصَلِّ[٥] ، قالوا : وكان ابن أَقَيْصِر[٦] على مثاله يَحْتَذِى وإياه يحكِى ، وفى قبره وقبر قتيبة بن مسلم يقول شاعرُهم[٧] :

إنَّ لنـا قَبْرين قبـــرَ بَلَنْجَرٍ وقبراً بصِين اسْتَان يالَكَ من قَبْرِ[٨]

فأمّا الذى بالصِّين عمت فُتوحُهُ وسَلْمَانُ يُسْتَسقى بها سُبُل القَطْرِ[٩] -

---

(١) انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب ١٣٦/٤ ، والمعارف ٤٣٣ ، والأغانى ١٤٧/٥ ، وقد ذكر الجاحظ عنه هنا معلومات لم ترد فى هذه المراجع ، توفى سلمان سنة ٥٠ هـ ببلنجر من نواحى أرمينية .

(٢) المقرف من الخيل ما يدانى الهجنة أى أمه عربية لا أبوه لأن الإقراف من قبل الفحل والهجنة من قبل الأم ، هذا وقد ذكر أن عمر رضى الله عنه شك فى العتاق والهجن فدعا سلمان فأخبره ، فأمرسلمان بطست من ماء فوضع بالأرض ثم قدم إليه الخيل فرساً فرساً فما ثنى سنبكه وشرب هجنه ، وما شرب ولم يثن سنبكه عربه ، وذلك لأن فى أعناق الهجن قصراً فهى لا تنال الماء على تلك الحال حتى تثنى سنابكها وأعناق العتاق طوال . انظر عيون الأخبار ١٥٥/١ .

(٣) الخارجى : الفرس الجيد فى ذات نفسه لا من حيث أصوله ، والعريق : الذى كرم وكرمت أصوله . (٤) البهم بفتح الباء جمع بهمة : أولاد الضأن والمعز والبقر .

(٥) المصلى : هو التالى للسابق فى الحلبة .

(٦) ابن أقيصر رجل كان بصيراً بالخيل ، عاش فى زمن معاوية ، له أقوال فى الخيل فى عيون الأخبار ١٥٤/١ ، البيان والتبيين ١١٦/٢ ، أمالى القالى ٢٥١/٢ .

(٧) هو عبد الرحمن بن جمانة الباهلى كما فى معجم البلدان (بلنجر) وانظر المعارف ٤٣٣ .

(٨) فى المعارف : بأعلى الصين بدل بصين استان ، هذا وقال فى المعارف : قال أبواليقظان : قبر قتيبة بفرغانة فجعله الشاعر من الصين .

(٩) يستسقى بها أى بعظامه ، فى المعارف أن عظامه عند أهل بلنجر فى تابوت ، إذا احتبس عليهم المطر أخرجوه فاستسقوا به فسقوا .

هذا ورواية هذا الشطر فى المعارف : وهذا الذى بالترك يسقى به القطر ، ورواية معجم البلدان : وهذا الذى يسقى به سبل القطر .

وكان على المقاسم ، وأول من قضى لعمر بن الخطاب على الكوفة ، قالوا : جلس للناس شهرين فلمّا لم يتقدّم إليه خَصْمان لصلاح الزمانِ واصطلاح الناسِ طوى بساطه وحَمِد الله على ذلك ، وله أخبار وأحاديث.

قالوا : وكانت دار سلمانَ بنِ ربيعة لسعيد بن قيس الهمدانى[1] حتى رحل سلمان إلى عمر بن الخطَّاب ، فقال : يا أمير المؤمنين إنِّى رجل أعرج ولا قوّة لِي على المشى إلى المسجد ، فكتب عمر إلى سعد بن أبى وقَّاص : أنْ أَقْطِعْه أقربَ المواضع إلى المسجد ، وكلَّم سعدٌ سعيدَ ابن قيس ، فقال له : يا أبا عبد الرحمن ؟ هذا رجلٌ زَمِنٌ ، فتحوَّلْ عن دارك وأعطك مثلها ، فتحوّل عنها سعيدٌ ونزلها سلمانُ ووفى له سعدٌ بالذى قاله .

* * *

قالوا : وكان عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب والى الكوفة[2] وكان أعرج ، وكان على شُرَطِهِ القَعْقَاعُ بن سُوَيد المنقرىُّ وكان أعرج ، وكان على كتابته سلمانُ بنُ كَيْسَانَ وكان أعرج ، فكان صاحب الشرطة يخرج وهو يَخْمَعُ ، ثم يخرجُ الأمير وهو يَخْمَع ، ثم يخرج الكاتب وهو يَخْمَع ، وكان الحكمُ بنُ عَبْدل الشاعرُ أعرج ، فرآهم يوماً وخاطب نفسه[3] فقال :

---

(١) سعيد بن قيس ، فارس من الدهاة الأجواد ، كان خاصا بعلى رضى الله عنه وقاتل معه فى صفين ، توفى نحو سنة ٥٠ هـ .

(٢) من قبل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، انظر المعارف ١٨٠ ، وانظر بعض أخباره معه فى البيان ١/٢٨٠ .

(٣) الصحيح أن ابن عبدل رأى الأمير وصاحب شرطه وقد تعرض لهما سائل أعرج أيضا فخاطبه ببيتيه التاليين ، انظر الأغانى ٢/٤٠٥ . هذا وقد ورد الخبر فى الحيوان ٥/٤٨٥ ، البيان ٣/٧٦ خاليا من اسم صاحب الشرطة والكاتب ، وورد فى عيون الأخبار ٤/٦٧ ، وفيه اسم صاحب الشرطة ولم يرد فيه اسم الكاتب .

أَلقِ العَصَا ودَع التَّخَادُعَ[1] والتَّمِسْ عَمَلًا فهذى دَوْلَةُ العُرْجانِ
لأميرنا وأمير شرطتنا معـــاً يا قومَنَا لكليهما رِجْـــلاَنِ

لم أر الشِّعْرَ دَلَّ إلاَّ عَلَى عَرج الأمير وصاحبِ الشُّرْطَة وعلى عرج الحكم الشاعر .

وفى حديث الهيثم[2] زيادة أعرجين ، أحدهما ابن أبى موسى والآخر سليمان بن كيسان وهذا عندى عجبٌ .

وكان الحكمُ بن عَبْدَل قد خافه الناسُ وهابَتْه الأُمراءُ بعد هجائه لمحمد بن حسّان وكان بعد ذلك لايغشى أبوابَهُم ، ولكنه كان يكتبُ على عصاه حاجتَهُ ويبعث بها مع غلامه فيدخِل الحاجبُ العَصَا ويقضى حاجته ، والناسُ والشعراء محجُوبون ، فلما رأى يحيى بن نَوْفل[3] وحَمزةَ بنِ بيضٍ[4] وأبو جسرح[5] ماصنع الحاجب بعصا الحكم وهم بمزْجر الكلب ، قال يحيى بن نَوْفل :

---

(١) فى الأغانى والبيان والحيوان : التخامع أى التعارج ، وفى العيون ، التناوش .

(٢) هو الهيثم بن عدى صاحب كتاب البرصان والعرجان الذى أشار إليه الجاحظ فى المقدمة .

(٣) هو أبو معمر يحيى بن نوفل الحميرى اليمانى من شعراء الدولة الأموية ، كان هجاء ظريفا ذا فكاهة ، ترجمته فى الشعر والشعراء ، وانظر بهجة المجالس ٢٦٤/١ ، والأغانى ٤٩٥/٢ .

(٤) الحنفى ، كوفى خليع ماجن ، انقطع إلى مدح المهلب بن أبى صفرة وولده ، ثم إلى أبان بن الوليد وبلال بن أبى بردة ، ترجمته فى الأغانى ١١/١٥ — ٢٥ ، والمؤتلف والمختلف ١٠٠ .

(٥) هكذا فى الأصل ولعله أبو حشرج مثلا ولم أهتد إلى تعريف به .

عَصَا حَكَمٍ فى النَّاسِ أولُ داخلٍ ونحنُ لدى الأبوابِ نُقْصَى ونُحْجَبُ

* * *

ومن العرجان ثم من العبيد الشعراء ، وممن يعدُّ فى الحُدْبِ والعُرْج : ذو الركبة العوجاء وأظنه السائل المُشرى ، وهو الذى يقول فيه الشاعر فى قصيدته التى ذكر فيها شعرَ العبيد ، وقد ذكرنا هذه فى كتاب « الصُّرَحَاءِ والهُجَنَاء » وإياه يعنى فى قوله :

وفى دَرَكٍ والعَبْدِ ذكوان والذى أرَاحَ على بشرٍ بقَاصِمة الظَّهْرِ
وعبدِ بنى الحَسْحَاسِ والشيخُ مُورقٍ وذِى الركبة العَوْجَاءِ والسائلِ المشرِى

فذو الركبة الذى يقول :

سَخِرَ الغوانى إن رَأَيْنَ مُوَيْهِناً كالنَّوءِ أكلفَ شاحبٍ مَنْهُوكِ[٢]
ورأى البيوتَ فجاء يأْملُ خَيْرَها مهرى حدى فعليه وسِلوكِ[٣]
والرُّكْبَتَانِ مفارقٌ رأْساهمـا والظهرُ أَحْدَبُ والمعاشُ ركيكُ[٤]
سئم الحياة ولاح فى أعطافِهِ قشفَ الفقير وَذِلَّةَ المملـوكَ
مثلُ البليّـة برّحت بحياتـه خُرْقُ البطونِ قليلةُ التبريكِ[٥]

يقول : أنا راعى ضأْن والضائنة آكل كل شئ ، وأدومه رغبة

---

(١) انظر البيت فى المراجع السابقة ، وفى البيان والأغانى : الدار بدل الناس ، وفى السمط ٨٩٩ أن قائل البيت حكم بن ثول .

(٢) النوء : النجم البعيد ، وسوف يرد البيت برواية أخرى فيما يلى من فصول الكتاب .

(٣) هكذا فى الاصل ، ولم أهتد إلى تقديمه .

(٤) فى هذا البيت إقواء .

(٥) فى الأصل : خوف البطوق وواضح أنها تحريف .

وأكلاً . وهى لا تبرُك كبروك الإبل فيستريح الراعى ، ولغِلَظ مؤونتها على الراعى قالوا : أحمقُ من راعى ضأنٍ ثمانين[١] ، لأنه يتعايا بها وتغلبه فيعجز عنها . والنعجة موصوفة بشدة الأكل ودوامه . وهى آكلُ من الكبش . والرمَكةُ[٢] آكلُ من البِرْذَوْن ، وقيل لأعرابىّ : أىُّ الدواب آكلُ ؟ قال : بِرْذَوْنَةٌ رَغُوثٌ[٣] ، فإذا كانت البرذونة آكلُ الدوابّ فعلى حساب ذلك أكلها إذا أرْضعت ، ويقال : إنه لو جمع أكل المرأةُ من غَدْوة إلى الليل لكان أكثر من غَداء الرجل وعشائه . هكذا يحكون فى أكثر النساء ، وهى تمضغُ من غَدْوة إلى الليل وكذلك الحِجْرُ[٤] والفرس .

* * *

ومن العرجان . مُعاذُ بنُ جَبَل[٥] . قالوا : وكان مُعاذُ أُمَّةً . وكان يُشبه إبراهيم خليل الرحمن . ولم يكن في السَّلف أحسَنَ جُرْدَةً[٦] ولا أنعم بَدَناً من مُعاذٍ وسَهْلِ بنُ حُنَيف[٧] . وقال النبيُّ صلى الله عليه

---

(١) انظر الحيوان ٥/٤٨٨ ومجمع الامثال ١/٢٢٤ .

(٢) الرمكة : الفرس والبرذونة تتخذ للنسل .

(٣) الرغوث : المرضعة ، وانظر هذا القول فى الحيوان ١/١١٤ ، والبيان ٣/٢١٢ .

(٤) الحجر : الأنثى من الخيل .

(٥) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدى . من الخزرج ، شهد بدراً وله عشرون سنة ، وهو أحد من جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أمره الرسول على اليمن وكتب إلى أهل اليمن : « إنى بعثت عليكم خير أهلى » ، توفى معاذ فى طاعون عمواس سنة ١٧ هـ ، وعمره ثلاث أو ثمان وثلاثون سنة ، وكان أبيض طوالا حسن الشعر عظيم العينين ، من أجمل الرجال ، انظر طبقات ابن سعد ٢/١٢٠ ، المعارف ٢٥٤ ، الإصابة الترجمة ٨٠٣٢ .

(٦) الجردة بضم الجيم : العرى ، والمقصود جمال جسده حين يتجرد من ملابسه .

(٧) من الأنصار ، من بنى عمرو بن عوف ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهد « صفين » مع على كرم الله وجهه ، وكان يسكن الكوفة ، ومات بها سنة ثمان وثلاثين ، انظر المعارف ٢٩١ ، الإصابة الترجمة ٧٥٧ .

وسلَّم « آمَنَ كلُّ شيء من مُعَاذٍ حتى خَاتَمُهُ » ، وكان يعدُّ من الزُّهَّاد الستَّة ، وقد شهد المشاهدَ وولى للنبيِّ الولايات ، وقَبْضَ الصدقات ، وتَعْلِيمَ النَّاسِ الإسلام وتدريسهم القرآن . وهو ابنُ أقلّ من عشرين سنة ، وكان عند رسولِ الله وجيهاً وفى عيون المسلمين عظيماً ، وقال الهيثم : أنبأنا أبو الهُذَيل سعيدُ بن عُبَيْد الطائىُّ فى إسنادٍ له ، قال : بعث النبى صلى الله عليه وسلم مُعاذَ بن جَبَل إلى اليمن فنزل فى حىٍّ منهم ، وقال : لا تَرُونى أصنعُ شيئاً إلاَّ صنعتُم مثلَه ، وكان به عَرَجٌ فكان إذا صلَّى قدَّم إحدى رجليه ، قال : فلما صَلُّوا لم يبق منهم أحدٌ إلا قدَّم إحدى رجليه ، قال : فلمّا انصرفوا قال لهم : إنِّى إنَّما فعلتُ هذا من عَرَجٍ ، فلا تفعلُوا مثل هذا .

وزعموا أنه صلَّى إلى قُرْبِ شجرةٍ فكان غُصْنٌ منها قد ضَرَبَ إحدى عينيه فتناوله فكسره فلم يبق أحدٌ ممّن خلف، إلاَّ تقدَّم إلى الشجرة فكسر منها غُصْناً .

قالوا : ولما قدم معاذٌ على النبى عليه السلام ومعه أصحابه الذى قدم بهم سجدوا للنبى عليه السلام ، وكان يرون ذلك من صنيع العامة تعظيماً للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلم فقال النبى : « اسْجُدوا لربِّكم وأكرموا أخاكم ، ولو أمرتُ أحداً يسْجُدُ لأَمرتُ المرأةَ أن تسجُدَ لبَعْلها » .

* * *

وكان أبو عَبْدان المُخَلَّع مولى بَلْعَنْبر واسمه مرثد ، وكان أطيبَ

النَّاس شعراً ، وكان صَعْتَرِياً[١] صاحب نَيْزَكِيَّةٍ وتَخلُّع ، وكان [ذا] نشال[٢] ، وإذا تكلم عقف أصابعه ، فلم يزل يتكلَّفُ ذلك حتَّى صارُ مُخَلَّعاً بالحقِّ ، وصار أسوأ حالاً من الأَشلِّ ، وكان فى صغره خيّاطاً فصار فى حال لا يستطيعُ أَن يملكَ نفسه ولا يمسك إبرةً بيده ، وهو الذى يقول :

الدَّيْنُ أَدْنَانِى وما كنتُ بالدَّنِى وأَدْنَى من الدَّيْنِ الَّذى لِدِيَاتِ

وهو الذى يقول فى أبيات له فَحِشَةٍ يذكُر فيها الغلمان :

وكل نكشٍ بالكَشْحِ مُغْتـرفٍ أصبح نحوى مؤاجَراً ذَرِبَا[٣]
صار لـــه خَاضِباً فـــواحَزَناً لو عَزّ هــذا النميرُ ما خُضِبَا

ومثله ما خبّرنى به أَبو عبّاد النُّميرىُّ واسم أَبى عبّاد مروان ، قال : كنتُ وأَنا غلامٌ أَشتهى الصَّعْتريّةَ والمواثبة والتكاتُف[٤] والنشال ، وتعقيف الأَصابع إذا تكلمتُ ، فصرتُ والله كأَنِّى أُفرغت فى ذلك القالب إفراغاً ، فلمّا عقلتُ احتجتُ إلى أَن أَستوى فما أَجابتْنى الطبيعةُ ولا أَجابتنى تلك الجوارح إلاَّ بشدّة الاسْتكراه . وبَقِيتْ والله

---

(١) الصعترى : وهو النشاط وهو من أعيا الناس خبثاً وحيلا ، والنيزكية : الشر ، والتخلع : الشطارة أو هو مشية فى تفكك ، أو مشية تشبه مشية من به مس .

(٢) فى المخطوطة : وكان ... شال رقد تأكل هامش الصفحة عند الكلمة الثانية ، فلعلها كما أثبت ، والنشال : الأخذ فى سرعة وخفة .

(٣) النكش : التقاب عن الأمور المستخرج لها ، والكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف ، والمؤاجر : الذى يكرى نفسه بأجر ، وذرباً أى سليط اللسان ، ويحتمل أن تكون دربا أى جريئا .

(٤) المواثبة : أن يثب الشخص على آخر وأن يثور إليه ويساوره ، والتكاتف : مشية خاصة تكون بتحريك الكتفين .

خنصرُ أصَابعى ما تنبسط إلاَّ بأن أمدَّها ، ومتى تركتها عادتْ معقَّفَة ، وأبو عبَّاد هو الذى يقول لما وجَّههُ بعضُ العمال فى السِّعاية[١] وحفظ البَيْدرِ وما فيه ، فقال[٢] :

كنتُ بازاً أضربُ الْكُرْ ... كىَّ والطيرَ العِظَامَا

فتقنَّصت بيَ الصُّعْـ ... ـوَ فأوهنْتَ القُـ ... ـدامى[٣]

وإذا ما أُرْسِل البَـ ... ـا زى على الصَّعْـ ... ـو تَعَامى

وكان يتمثَّل فى ذلك بقول الفرزدق حين بعثوه يرعى الغنم ، فضيَّعها وعاث فيها الذئب ، فقال عند ذلك فى أبيات له وهو أول شعر قاله[٤] :

وما كنت مِضْياعاً ولكنّ هِمَّتى ... سوى الرَّعْىِ مَفْطوماً وإذْ أنا يَافعُ

أبيتٌ أَسُومُ النَّفْس كل عظيمةٍ ... إذا وطئت بالمكثرينَ المضاجعُ

وقد كان أبو عبّاد أراد بقول أبى النجم فى صفة الراعى :

يميسُ بين الغانيات الجُهَّـلِ ... كالصَّقْرِ يَجْثُو عن طِراد الدُّخَّلِ[٥]

وقد وصف عُبَيْدُ الرَّاعى[٦] كيف تَتَحَوَّلُ صورةُ الرَّاعى وتتبدّل

---

(١) السعاية : مباشرة جمع الصدقات أو نحوها .

(٢) انظر الأبيات التالية فى الحيوان ٢/٥٩٩ .

(٣) الصعو : عصفور صغير ، والقدامى : الريش فى مقدم جناح الطائر ، وفى الأصل : القواما تحريف .

(٤) لم يرد البيتان فى ديوانه .

(٥) البيت فى ارجوزته ضمن الطرائف الأدبية ٧٠ ، والحيوان ٥/٥٩٩ ، وجمهرة اللغة ٢/٢٠٢ ، ٣/٣٥١ ، والرواية فيها : يمر بدل يميس ، والدخل : طير صغير أمثال العصافير تأوى الشجر الملتف . وفى الأصل : الرحل تحريف .

(٦) هو عبيد بن حصن بن جندل الراعى النميرى الشاعر المشهور الذى كان يفضل الفرزدق على جرير فهجاه هذا هجاء مرا ، توفى سنة ٩٠ هـ ، انظر الخزانة ١/٥٠٤ ، والسمط ٥٠ .

خلقتُه ، وكذلك كلُّ صناعة تصوِّر صاحبَها على ما يُشاكلُها ، ألا ترى أنَّ الحائكَ يُعرف بصُدْرَتِه وتَفحُّج[1] رجليه ، ولا يكون أبداً إلا وجلدُ بطنِهِ أسود ، وقد ذكر خلف بن خليفة[2] — وقال عُبيد الراعى :

ترى وَجْهَهُ قد شاب فى غير لحيةٍ ... وذا لُبَّد تحت العصابة أنْزَعا[3]

ترى كعبَه قد كان كعبَيْنِ مَرَّةً ... وتحسَبُهُ قد عاش حَوْلاً مُكَنَّعَا[4]

وقال يزيدُ بن مُفَرِّغ ما يؤكد قولَنا ويفسِّرُه ، قال :

يقولون أوْسٌ شاعرٌ فاحذرنَّهُ ... وما أنا إنْ لم أهْجُ أوْساً بِشَاعِرِ

رأيت لأوْسٍ خِلْقَةً فَشَنأْتُهَا ... لهازِمَ حَرَّاثٍ وتقطيع جَازِرِ[5]

وقال آخر :

وصفتِ بِجُهْدِى وَجْهَ حفصٍ وخَلْقَهُ ... فما قلتُ فيه واحداً من ثَمَانِيَهْ

لهازِمَ أكَّارٍ وخلقَةَ كافِرٍ ... وتقطيعَ كَشْخَانٍ ورَأْسَ ابن زانيهْ[6]

ولحيةَ قَوَّادٍ وعَيْنَيْ مُخَنَّثٍ ... وجبهةَ مأْبُونٍ يُناك عَلَانِيَهْ

---

(١) الصدرة : الصدر ، أو ما أشرف من أعلاه ، والتفحج : التفرج بين الرجلين .

(٢) خلف بن خليفة شاعر من معاصرى جرير والفرزدق ، عرف بالأقطع لأن يده قطعت فى سرقة فاستعاض عنها بأصابع من جلود ، انظر الشعر والشعراء ٦٩٣ ، ويلاحظ أن هذه العبارة لا مدلول لها ومن المؤكد أن فى النص سقطاً .

(٣) اللبد : الشعر الملتزق بفروة الرأس ، والأنزع : من انحسر شعره عن جانبى جبهته .

(٤) المكنع : مقطوع اليدين أو متشنجهما ، وانظر البيت فى السمط ٩٦٩ .

(٥) شنأ بكسر النون وفتحها : كره ، واللهازم جمع لهزمة وهى اللحمة الناتئة خلف الأذن ، واستعمل الجمع هنا مكان المثنى وهو كثير فى كلامهم ، وتقطيع الرجل : قده وقامته ، والجازر : الجزار .

(٦) الأكار : الحراث ، والكشخان : القواد الديوث .

وراحــة صبّاغٍ وصُــدْرَةَ حائكٍ ومَرفِقَ سَقْطٍ[1] رُدّ فى الرَّحْم ثانيَهْ

* * *

وممن هُجى بالخلقة وليس بشىْءٍ اجْتلبه ، جعفرُ بنُ يحيى ، قال أبو نواس فى جعفر بن يحيى[2] :

قالوا امتدحتَ فماذا اعْتَضْتَ قلتُ لَهُمْ :

خَرْقَ النِّعال وإخْلاقَ السَّراويل[3]

قالوا فسَمِّ لنا هذا فقلتُ لهـم أو وَصْفه يعدِلُ التَّفْسِيرَ فى القِيل

ذاك الوزيرُ الذى طالتْ علاوتُهُ كأنه ناظرٌ فى السَّيْفِ بالطُّول[4]

وقال أبو نواس فيه أيضاً[5] :

عجبتُ لهـارونَ الخليفةِ ماالَّذِى يُؤَمِّلُهُ من جعفرٍ خِلْقَـة السِّلْق[6]

قَفًا خَلْفَ وجهٍ قد أُطيل كأَنَّهُ قَفَا مَلِكٍ يَقْضِى الهُمُومَ على بَثْقِ[7]

وأعظم زَهْواً مِنْ ذُبَابٍ على خِرءٍ وألأَم من كلبٍ عَقُورٍ على عِرْقِ[8]

أرى جعفراً يزدادُ بُخْلاً ورِقَّةً إذا زادهُ الرحمنُ فى سَعَةِ الرزقِ

ولو جاء غير البخل من عند جعفر لما وضعوه الناس إلاَّ على حُمْق

* * *

(١) السقط : الجنين ينزل قبل تمامه .

(٢) ديوانه ١٣٧ ، والبيت الثالث فى البيان ٣٥٦/٣ .

(٣) الإخلاق : البلى .

(٤) العلاوة : أعلى الرأس ، أو أعلى العنق .

(٥) الأبيات فى ديوانه ١٧٣ ، والبيان ٣٥٤/٣ ، والحيوان ٢٣٨/١ ، ٢٦٣ ، عيون الأخبار ٢٧٣/١ مع اختلاف فى ألفاظ الرواية .

(٦) السلق : الذئب ، وفى الأصل : الشلق .

(٧) البثق : منبعث الماء .

(٨) العرق : العظم أخذ عنه أكثر لحمه .

ومن العُرجان ، هَرْثَمة بن النَّضر الجَبَلى ، وما رأيتُ أحداً قط يمشى وهو أعرج إلاَّ وقد كان هرثمةُ أقبح مشياً منه ، وذكروا أنَّه كان على ظهر الفرس يُعطى يوم الروع حقَّه من الطِّعان .

* * *

قال العمرىُّ : كان عمرُ بن الخَطَّاب يُمسك أُذنه اليُسرى بإصبعه اليُمنى[1] ثم يثب على ظهر الفرس كأنَّما خُلق هنالك ، وكان يقولُ : اقطعوا الرُّكبَ وانزوا على الخيل ، وتمعددُوا واخشوشنوا[2] ، وكان يقول : إياكم والسِّمنة فإنها عُقْلة[3] ، وامْشُوا حُفاةً فإنكم لا تدرون متى تكونُ الجولة .

* * *

قال : وجمع الوليد بن يزيد جراميزه[4] ووثب من الأَرض على ظهر فرسه كأَنَّه لم يَزل فوقه ثم أقبل على ابن هشام وكان الوليدُ ولىَّ عمه هشام، فقال : أبوك يحسن مثل هذا ؟ قال : لأَبى مائةُ عبد كُلُّهم يحسنُ مثلَ هذا .

* * *

قالوا : ولم يكن من ولد العبَّاس إلى يومنا هذا خليفة إلاَّ وهو فارسٌ صبورٌ على شدّة الركض وعلى طول السُّرى .

* * *

(١) هكذا فى الأصل ، وفى البيان ٢٤/٣ أنه كان يأخذ بيده اليمنى أذن فرسه اليسرى .

(٢) الركب : جمع ركاب وهو من السرج بمنزلة الغرز من الراحلة ، وفى العقد الفريد ١٩٠/١ وعيون الأخبار ١٣٣/١ : وألقوا الركب ، ومعنى تمعددوا أى تزيوا بزى معد ابن عدنان أبي العرب فى تقشفهم أو تنسبوا إليهم أو تصبروا على عيشهم ، قال فى القاموس: وقول الجوهرى: قال عمر رضى الله عنه ، الصواب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تمعددوا واخشوشنوا: رواه ابن (أبى) حدرد .

(٣) العقلة: الوثاق . (٤) الجراميز: بدن الإنسان ، وأخذ بجراميزه أى أجمع نفسه للوثوب .

ومن العرجان ، أبو مالك الأعرج الشّاعر[١] ، وهو الذى عناه اليزيدىّ بقوله :

لَعَمْرِى لَئِنْ كان الأُعَيْرِجُ آرَهَا فما النَّاسُ إلَّا آيرٌ ومُثِيرُ[٢]

وأبو مالك الذى يقول :

تَلَوَّطَ دَهْرًا ثم عَاذَ بِدُبْرِهِ فَيَالَكِ من دُبْرٍ تَرُدُّ المَظَالِمَا

* * *

ومن العُرجان المجاهيل[٣] ، ما حدّث به أبو الحسن ، عن أبى الوليد : قال : بينما عمر بن الخطاب جالساً إذ أقبل أعرج يقود ناقة تظلعُ حتى وقف عليه فقال :

إنَّك مُسْتَرْعًى وإنَّا رعيَّـــة وإنَّك مـدعوٌّ بسيماك يا عُمَرْ

أرى يومَ شـــرٍّ شـرُّهُ متفاقِمٌ وقد حَمَّلَتْكَ اليوم أَحْسَابَها مُضَرْ[٤]

فقال عمر : لاحول ولا قوّة إلاّ بالله . وشكا عَرَجَ رِجْلِهِ وظَلَعَ ناقته ، فقبض عمر الناقة وحمله على جمل وزوّده ، ثم خرج عمرُ حاجًّا فى عقب ذلك فبيناه يسيرُ إذا لحق راكباً وهو يقول :

ما (إنما) رأينا مثْلَكَ يا ابن الخَطَّاب بعـد النَّبِىِّ صَاحِبِ الكتاب

أَبَرَّ بالأَدْنَى[٥] وبالأحبابِ

---

(١) هو أبو مالك النضر بن أبى النضر التّيمى ، وفد على الرشيد ومدحه ، ذكره أبو الفرج فى الأغانى ١٩/١٥٠ ، ١٥١ ، (هامش الحيوان ٦/٤٨٦) .

(٢) البيت فى الحيوان ٦/٤٨٦ ، ومع أبيات أخرى مروية عن الجاحظ فى اللسان ٥/٩٨ ، ومعنى آرها : جامعها .

(٣) ذكر فى المؤتلف والمختلف ٦٧ أنه ابن براقة السكونى ، وفى كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء ٨٨ أنه حميد بن طاعة السكونى وأورد الخبر الذى هنا .

(٤) فى كتاب من نسب إلى أمه ورد هذا البيت بالرواية التالية :

لدى يوم شر شره لشراره وخير لمن كانت معائشه الخير

وفى المؤتلف : لدى يوم حق إلخ . (٥) فيمن نسب إلى أمه : بالدين بدل الأدنى .